

# امعان في تفسير القرآن

تأليف

لمعلم عبد الحميد الفراهي

صاحب تفسير ﴿ نظام الفرقان ﴾

ومؤلف ( اساليب القرآن ) ، و ( اسباب الدول ) ، و ( تاريخ القرآن ) ، و ( اوصاف القرآن )  
و ( التاسخ والتسوخ ) ، و ( معرقات القرآن ) ، و ( اصول التاويل ) ، و ( دلائل نظام القرآن ) الخ .

طبع على نفقة جمعية

دار المصنفين

بمدينة أعظم كره ( بالهند )

المطبعة السلفية - ومكنتها

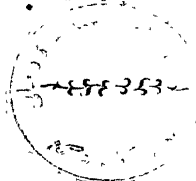
# امعان في تفسير القرآن

تأليف

المعلم عبد الحميد الفراهي

صاحب تفسير (نظام القرآن)

ورئيس لجنة المديرين لدار المصنفين بمدينة اعظم گره بالهند



طبع على نفقة جمعية

دار المصنفين

المطبعة السلفية - ومكنتها

منتدى العقلانيين العرب  
[www.arab-rationalists.com](http://www.arab-rationalists.com)

القاهرة

١٣٤٩

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

# الكتاب الكبير

(١) سبحان الذى أنطق كل شىء بأنه صنع يده ، وغذى رفقده .

سبح الشمس لكبريائه ومجده ، ويسجد له القمر يجبينه وخده ، يتهدله

البر بغوره ونجده ، ويخفد اليه البحر بجزره ومده . كما قال تعالى فى كتابه

﴿ تسبِّح له السموات السبع والأرض وممن يهن وإن من شىء إلا يسبح

بحمده ﴾ . ونصلى على محمد رسوله المختار وعبداه ، وعلى آله وصحبه المعتصمين

بجمله وعهده . والتابعين لهم على سواء السبيل وقصده ﴿ أما بعد فهذا

كتاب فى بيان أقسام القرآن ، وموجز من المقدمة التى جعلتها لذكر

الأمور الكلية التى أحتاج الى إيرادها فى كتاب ( نظام القرآن وتأويل

الفرقان بالفرقان ) لتغنى عن التكرار الذى لا طائل تحته . وقد جاء القسم فى

كتاب الله تعالى كثيراً واشتبهه على الناس بمعناه وحكمته والبحث عنه فى

كل موضع لا يليق بكتابتنا الذى بنى على الإيجاز . فأردت أن أتكلم عليه

من جهة كلية فى جزء مختصر . ولم أطلع على كتاب من القدماء فى هذا

الباب غير كتاب التبيان للعلامة ابن القيم أو ما ذكر فى التفسير الكبير

للعلامة الرازى ومن أمته رحمهم الله وسنورد منهما فى خلال فصول كتابنا

هذا ما يقتضيه سياق الكلام ، والله الهادى الى سبيل السلام

## ذكر الشبهات الثلاث

### على أقسام القرآن

(٢) لما كان المقصد الأعظم من هذا البحث إزالة الشبهات أردت أن أذكرها أولاً ليكون الناظر من قبل على بصيرة بمساق الكلام فيتضح له شكل نظامه وغرض سهامه . فاعلم أن الشبهة على أقسام القرآن من وجوه :

(١) القسم نفسه لا يليق بجلالة ربنا ، فإن الذي يحلف على قوله يهين نفسه ويضعها موضع من لا معول على حديثه ، وقد جاء في القرآن ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ فجعل الحلف من الخلال المذمومة ، ونهى المسيح الحواريين عن الحلف مطلقاً فقال لهم : «ليكن قولكم نعم نعم أو لا لا ولا تحلفوا»

(ب) القسم في القرآن جاء على أمور مهمة كالمعاد والتوحيد والرسالة ولا فائدة فيها للقسم إلا للمنكر بها فإنه يطلب الدليل والبرهان والقسم ليس في شيء منه ولا للمؤمن فإنه قد آمن بها

(ج) القسم يكون بالذي عظم وجلّ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «من كان حالفاً فيحلف بالله اولىصمت» فهى عن القسم بغير الله فكيف

يليق بجلالة ربنا أن يقسم بالخلق لا سيما بأشياء مثل التين والزيتون فهذه ثلاث شبهات . ونذكر أولاً ما أجاب به الرازى وغيره من

المتقدمين ، وذلك على ما فيه من الضعف لتحذرك عن التمسك بالعري  
الواهنة فإنه أكبر ضرراً في الدين وأبسط لألسنة المعاندين ومع ذلك ندعو  
أن يجازيهم الله بما اجتهدوا في الذب عن بيضة الحق وذماره كما أدعو أن  
يجعلني من حزب الحق وأنصاره

## طريق الامام الرازي

### في الجواب عن هذه الشبهات

(٣) قد ذكر الامام الرازي الشبهة الثانية وأجاب عنها في تفسير  
سورة والصفّت فقال « والجواب من وجوه الاول انه تعالى قرر التوحيد  
وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك  
الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لاسيما والقرآن انزل بلغة  
العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (فيما ذكر  
من نزول القرآن بلغة العرب وكون اليمين طريقة مألوفة عندهم أيضاً جواب  
للشبهة الاولى) . وحاصل هذا الوجه ان القسم انما هو مسبوق بالدلائل .  
فالمعول عليها . واما ايراد القسم فهو للتأكيد المحض كما هو عادة العرب  
(والظاهر ان هذا الجواب يناقضه القرآن فانك في أوائل الوحي ترى القسم  
أكثر مما تراه بعد استيفاء الدلائل) . الوجه الثاني في الجواب انه تعالى لما  
اقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى « ان الهكم لواحد » ذكر عقبيه  
ما هو كالدليل اليقيني في كون الاله واحداً وهو قوله تعالى « رب السموات

والارض وما بينهما ورب المشارق » وذلك لانه تعالى بين في قوله « لو كان  
فيهما آلهة الا الله لفسدنا » أن انتظام السموات والارض يدل على ان الاله  
واحد فها هنا لما قال « ان الهكم لواحد » اردفه بقوله « رب السموات  
والارض وما بينهما ورب المشارق » كأنه قيل قد بينا ان النظر في انتظام هذا  
العالم يدل على كون الاله واحدا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم  
بالتوحيد ( وحاصل هذا الجواب ان القسم هاهنا مردف بقول فيه الحجة ،  
فلاحتجاج بها . واما القسم فلهحض التنبيه وهذا الجواب يشبه الجواب  
الاول وكلاهما ساكت عن بيان حكمة هذه الصور المتنوعة للقسم فأى  
فائدة للعدول عن القسم بالله الى القسم بهند الاشياء ) . الوجه الثالث في  
الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام في قولهم بانها  
آلهة فكانه قيل هذا المذهب قد باغ في السقوط والركاكة الى حيث يكفي  
في ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم . « هذا الجواب سخييف جدا كأنه بعد  
ما اعترف في الوجهين الاولين بان القسم لاحجة فيه قال ان مذهب الخصم كان  
جدرا بان نجاب عنه بما ليس من الحجة في شيء . ثم ذكر من حكمة القسم  
في تفسير سورة الذرأت ما يشبه باجواب عن الشبهات فقال « قد ذكرنا  
الحكمة في القسم وهي من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة في سورة  
والصفت ونعيدها ههنا وفيها وجود : الأول أن الكفار كانوا في بعض  
الأوقات يعترفون بكون النبي غالباً في اقامة الدليل ، وكانوا ينسبون له  
المجادلة والى أنه عارف في نفسه بفساد ما يقوله وأنه يغلبنا بقوة الجدل  
لا بصدق المقال كما أن بعض الناس اذا أقام عليه الدليل ولم يبق له

حجة يقول انه غلبني بعلمه بطريق الجدل وعجزى عن ذلك وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول ان الأمر كما أقول ولا أجادلك بالباطل وذلك لأنه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل آخر فاذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الأول أن ذلك تقرر بقوة الجدل فلا يبقى الا السكوت أو التمسك بالايمان وترك اقامة البرهان ، وفي هذا الجواب خاط بين الغث والسمين ونقض لما قال في تفسير سورة والصَّفَّتْ فانه رحمه الله أجاب هناك في الوجه الثاني بأن القسم يتبعه الدليل وانما كان القسم لأجل التأكيد ، والأمر كذلك فان القرآن لا يسكت على القسم فلو قال ان الدليل المحقق ربما لا يجمع في الخصم اذا كان فايل المعرفة بالاستدلال وقايل الاعاد على نظره أو متهماً للمتكلم بخلافة بيانه فيحسن في هذه الحالات شوب الحجة باليمين فلو قال هكذا لكان أقرب . الثاني : هو أن العرب كانت نحتز عن الايمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع نعم ان النبي ﷺ أكثر من الايمان بكل شريف ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتا وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحاف بها كاذبا والا لأصابه شؤم الايمان واثاله المكروه في الأزمان وفي هذا الجواب كأنه أشار الى سبب كون اليمين طريقة مألوفة عند العرب كما مر ، وقد أصاب في ذلك لو لم يزد عليه ما قال من أن النبي ﷺ أكثر من الايمان بكل شريف كأنه بين سبب خوفهم وأراد أنهم اذا أقسموا بكل شريف خافوا سخطه ان كذبوا في يمينهم به ، وضعف هذا القول ظاهر فان أقسام القرآن (١) ربما يكون بما ليس فيه شرف



(٢) والقرآن يهـدى الى أن لا يخاف الا الله (٣) وأى شوم يخاف من التين والزيتون (٤) ثم النبي ﷺ كان يبلغ اقرآن من الله فالقسم منه تعالى وهو لا يخاف أحداً . فلو اقتصر على الجزء الأول من جوابه وقال ان العرب كانت نحتز عن الايمان الكاذبة وتخاف مغبتها وتعتقد أن الرجل لا يحلف كذبا فاذا حلف أحدٌ أصغوا اليه كان أقرب الى ما يجب به عن الشبهة الاولى والثانية جوابا ضعيفاً . الثالث : أن الايمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجهـا في صورة الأيمان مثله قول القائل لمنعمه وحق نعمك الكثيرة انى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هذه الأشياء كلها ( أى التي أقسم بها في أول الدرّيت ) دليل على قدرة الله تعالى على الاعدادة فان قيل فلم أخرجهـا مخرج الأيمان ؛ نقول لأن الانسان اذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى اليه اكثر من أن يصغى اليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين . هذا الجواب يكفى لدفع الشبهة الثانية ولكن يلزم على القائل به أن يبين وجه الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه وهذا مع كونه ظاهراً في بعض المواضع كثيراً ما يحتاج الى امعان شديد ولعله لهذا السبب لم يعتمد عليه إلا في هذه سورة الدرّيت وفي بعض آخر وأما في البواقي فله طريقان : الأول أنه ينكر وجود القسم اذا أمكنه الانكار فراراً عن شبهات واردة على القسم كما قال في تفسير سورة القيامة في ذكر لا التي تبتدىء بها السورة « الاحتمال الثانى أن لا هنا لنفى القسم

كأنه قال لا أقسم بذلك اليوم وتلك النفس ولكني أسألك غير مقسم  
أنحسب انا لا نجمع عظامك اذا تفرقت بالموت فان كنت نحسب ذلك فاعلم  
انا قادرون على أن نفعل ذلك . وهذا القول اختيار أبي مسلم وهو الأصح»  
هذا القول غير مختار عند العارف بكلام العرب فانه لو كان المراد كما فهم  
لكان وجه القول نفي مجرد القسم لا ذكر الأشياء الخاصة كالنفس اللوامة  
والخنس الجوارى الكنس وغيرها ، ثم هذا مخالف لأسلوب كلامهم  
فانهم يستعملون كلمة لا قبل القسم منقطعة كما بينا في تفسير سورة القيمة  
وهذا هو مختار الزمخشري والطريق الثاني : هو القول بأن القسم للتأكيد  
والتنبيه على شرافة المقسم به قال في تفسير سورة الذريرت وقد عرفت أن  
المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به . وعلى هذا الأصل قال في  
تفسير سورة التين « اعلم أن الاشكال هو أن التين والزيتون ليسا من  
الامور الشريفة فكيف يابق أن يقسم الله تعالى بهما فلاجل هذا السؤال  
حصل فيه قولان » ثم ذكر فوائدهما ان كان المراد منهما هذه الاثمار ،  
وذكر شرافتهما ان كان المراد منهما مسجدبن أو بلدين . وقد علمت أن  
التمسك بهذا الجواب مع كونه بادى الخلل لا يزيل الشبهة الثالثة فان هذه  
الأشياء التي أقسم بها في القرآن ومنها : العاديات ضبجا ، والجوارى  
الكنس ، والليل ، والصبح ، والتين والزيتون . ليست من الجلالة بمكان  
يقسم بها خلقها وربها ان كان القسم لأجل شرافتها

## طريق العلامة ابن القيم رحمه الله

### في تأويل أقسام القرآن لدفع الشبهات

(١) لم يضع العلامة ابن القيم كتابه على شكل المجادلة فيذكر الشبهات ويحجب عنها لكنه، بحث عن حكمة القسم في القرآن وبين فيه ما يزيد الوهم ويحسم جرائمه الاعتراض ويركن الى الجواب الذي استحسنته ولكنه مثل الرازي لم يتمسك به كل التمسك فذبذب بين أمرين وهو في كتابه ربما يشرح في تفسير السور التي فيها القسم ويخرج من قول الى قول . واني أورد عليك خلاصة جوابه ، وذلك على موضع الخلل فيه حسب شرطنا فالعلم أنه رحمه الله اذا سلك مسلك الاستقراء فهدأ أولاً أن أقسام القرآن كلها باثنية وصفاته وآياته فقال « وهو سبحانه يقسم بأمر على أمور وانما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستنزمة لذاته وصفاته ، وأقسامه ، ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته » وبعد ذكر الامثلة قال « اذا عرف هذا فهو سبحانه يقسم على أصول الايمان التي يجب على الخلق معرفتها تارة يقسم على التوحيد وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الانسان » وما له عنده الى الجزاء فقطصر القسم على ثلاثة أمور وهذه الثلاثة ما لها واحد وهو صفته تعالى كما ستعلم من قوله عن قريب فبعد هذا التمهيد لم يبق له كبير حاجة الى جواب القسم فان القسم بنفسه دلالة على المقسم

عليه المعلوم المتعين وهو أحد الامور الثلاثة، فقال في ذكر القسم الذي  
تبتدئ به سورة والعايات وسورة والعصر « حذف جواب القسم لانه قد  
علم بأنه يقسم على هذه الامور (أى التوحيد والنبوة والمعاد) وهى متلازمة  
فحق ثبت أن الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ومتى ثبت أن القرآن حق  
ثبت صدق الرسول الذى جاء به، ومتى ثبت أن الوعد حق والوعيد حق  
ثبت صدق الرسول وصدق الكتاب الذى جاء به. والجواب يحذف تارة  
ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم وانه مما يخلف به » فهذه الأقسام  
عنده دلالات على صفات الله كما قال في ذكر القسم الذى تبتدئ به سورة  
البروج « وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته » ثم قال  
« والاحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لان القصد التنبيه  
على المقسم به وانه من آيات الرب العظيمة » وكذلك قال في ذكر القسم  
الذى تبتدئ به سورة الطارق « والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها  
المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته » ثم قال في ذكر  
القسم الذى جاء فى وسط هذه السورة « فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر  
والارض ذات النبات وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على  
ربوبيته » وهكذا قال فى ذكر القسم الذى فى أواخر سورة الانشقاق  
« وهذه (أى الشفق والليل والقمر) وأمثالها آيات دالة على ربوبيته  
مستلزمة للعلم بصفات كماله » ثم قال فى جواب هذا القسم « يجوز أن  
يكون من القسم المحذوف جوابه » وهذا لما قلنا أنه لا يحتاج الى جواب  
القسم فان المقسم عليه عنده معلوم متعين هذا ولا يخفى عليك الفرق بين

طريق الرازي رحمه الله الذي أشار الى أجوبة مختلفة ربما يناقض بعضها بعضاً وبين طريق ابن القيم رحمه الله الذي عمد الى نهج واحد واجتهد أن يعول عليه في جميع الاقسام وهذا الطريق أحسن . والآن ذلك على ملاك الامر في جوابه فاعلم أنه رحمه الله اعتمد على أصليين : الاول انه سبحانه وتعالى انما قسم بنفسه وآياته وأما القسم بال مخلوقات فهو أيضاً من باب القسم بذاته فانها من آياته . وأراد بهذا الاصل ازالة الشبهة الثالثة وهي تعظيم المخلوق فوق مكانته ولكنها لم تنزل فان القسم تعلق صريحاً بالمخلوقات وكونها من آياته ودلائل صفاته لا يخرجها عن كونها المقسم بها . وقوله « والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم المقسم به وانه مما يحلف به » تصرح منه بأنه سبحانه أقسم بغير ذاته المقدسة وأراد تعظيم بعض مخلوقاته فغاية الامر أنه تعالى لم يقسم بها الا من جهة شريفة ولا بأس بأن يجعل الله تعالى لبعض مخلوقاته شرفاً وكرامة لكن الشبهة ليست في محض شرافة بعض الاشياء فربّ صغير كبير ورب ضئيل نبيل لاختلاف الاعتبارات بل الشبهة في وضعها موضع ما يقسم به الرب تعالى شأنه علواً كبيراً . والاصل الثاني الذي اعتمد عليه هو أن الاقسام كلها دلالات على المقسم عليه ، وأراد بهذا الاصل ازالة الشبهة الثانية كما فعل الرازي رحمه الله حين ذكره في وجوه آخر فله يعتمد عليه وأما ابن القيم رحمه الله فاعتمد على هذا الاصل كل الاعتماد وفسر أكثر آيات القسم على طريق يظهر به دلالة المقسم به على المقسم عليه واذا أشكل عليه الربط جعل المقسم عليه محذوفاً وجعل القسم دالاً على صفات الله وغيرها

مما ذكرنا آنفاً. ومع هذا الوهن في جوابه والتصريح أحياناً بأن القسم لتعظيم المقسم به لقد أجاد وأصاب أو قد كاد في غير موضع من كتابه

## طريق هذا الكتاب

### في الجواب على سبيل الاجمال

(٤) لا يخفى عليك مما سبق من أقوال العلماء رحمهم الله أن أحسنهم قولاً من يقول ان هذه الاقسام دلالات ولكن الغمة التي لم تنجل عنهم والمضيق الذي لم يخرجوا منه هو ظنهم بكون القسم مشتقاً على تعظيم المقسم به لا محالة وذلك هو الظن الباطل الذي صار حجاباً على فهم أقسام القرآن ومنشأً للشبهات. فنبطله أولاً حتى يتبين أن أصل القسم ليس في شيء من التعظيم انما هو يفهم من بعض أقسامه ثم نبين أن أقسام القرآن بالمخلوقات ليست الا آيات دالة وانها نوع من القسم مبين للاقسام التعظيمية وليس من القسم بصفات الله كما ذهب اليه ابن القيم رحمه الله. ثم نرجع الى الفرق بين مواقع القسم الحمودة وغير الحمودة حتى يتبين أن النهي المطلق غير صحيح. فهذه ثلاثة مقاصد يتوجه اليها الكلام في كتابنا هذا واذ هي تقتضى بعض التفصيل والبسط في الكلام دعينا الى أن نبحث عن تاريخ القسم وحاجة الناس اليه قديماً وحديثاً وطرقه المتنوعة، ونبين معاني كلمات القسم ومفهومه الأصلي ومفاهيمه المتشعبة الثلاثة من الاكرام والتقديس والاستدلال المجرد عن التعظيم. ونورد من نفس

القرآن دلائل واضحة على تأويل أقسامه وندل على أسباب خفاء هذا التأويل ليتضح عذر من قبلنا من كبار العلماء رحمهم الله . ونشير الى بعض وجوه البلاغة في أقسام القرآن . ثم نذكر وجوه النهي والاباحة والاستحسان في القسم . ونكشف عن تأويل قول المسيح عليه السلام حين نهى تلاميذه عن الحلف ونلمع الماعماً الى بعض بلاغة القرآن في تمييزه بين كلمات القسم حسب مواقعه لتعلم ما لا يحسن منه . ذلك وقد ذكرنا فيما قدمنا جل مطالب هذا الكتاب اجمالاً ، فالآن نشرع في التفصيل ، والله الموفق ونعم الوكيل

## تاريخ القسم ومماجه الناس اليه

وطرقه المختلفة والدلالة على حقيقة معناه في أول الأمر

(٦) ان الانسان ربما يحتاج الى تأكيد خبر أو وعد منه حين يريد أن يعتمد عليه المخاطب وتطمئن به نفسه لاسيما في الأمور العظيمة كالمعاهدة بين قوم وقوم أو بين ملك ورعيته أو بين أفراد الناس ليكونوا على ثقة بعضهم من بعض فيعملوا الموافق من المخالف والولى من العدو . وهذه الحاجة التمدنية دعتهم الى طرق وكلمات خاصة يعبرون بها عن هذا التأكيد فكان ذلك أصل قسمهم . فربما عبروا عنه بأخذ اليمين كما علمنا من أحوال الروم والعرب والبرانيين . فاذا أخذ بعضهم يمين بعض عند المعاهدة أفصحوا بعزمهم وتأكيده كأنهم قالوا اتنا قد وصلنا أمرنا ورهنا

به أيماننا . ولذلك سمو القسم يميناً وربما صرحوا بهذا المعنى كما قال جساس :

سأؤدى حق جارى ويدي رهن فعالى

ومن هنا تضمن القسم معنى الكفالة والضمانة . وهذا معلوم ومعروف وبقاى فى أخذ اليمين للبيعة وصدق اليد فى البيع والشراء وزياد فى أم أكر كالروم والهند وزي العبرانيين أيضاً أنهم عبروا عن القسم باليمين نجاء فى الزبور ص ١٤٤ عدد ٨ « الذين أفواههم تنطق سوءاً ويمينهم يمين كذب » فى العبرانية « أشرفهم دبر سوء ويمينهم يمين سوء » والعجب من المترجمين الانكاريين كيف ذهب عليهم هذا المعنى فترجموه بقول معناه « اليد اليمى منهم يد يمينى الكذب » فله يفهموا من كلمة اليمين القسم بل اليد اليمى وهذا من أفش العثرات ويخبر عن قلة التفاتهم الى العبرانية . والعجب كل العجب أنهم فى هذا الزمان أصلحوا الترجمة المستندة وغيروها كثيراً ومع ذلك تركوا هذا الخطأ الفاحش على حاله . ذلك وجاء ذكر العقد بصفحة الكف فى أمثال سليمان فى التحذير عن الضمانة ص ٧ عدد ١ « يانى ان ضمنت صاحبك فصفقت كفك لغريب » فتشابهت هاتان الامتان فى أمر العقد ولذلك صارت كلمة اليمين اسماً للقسم بين العبرانيين كما هى عندنا وربما غمسون أيمانهم فى اناء ماء إذا كانوا كثيرين فكأنهم أخذ بعضهم يد بعض وأجمعوا أمرهم بما مسهم شىء واحد ، والماء أبلغ فى الس واللصوق ولذلك قالوا بل بالشىء يدى أى لصق به . قال طرفة :

إذ ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيعاً إذا بلى بقمائمى بدى

وربما أخذوا عطراً فاقسموه بينهم ومسحوا به أيديهم فراحوا وعبقه



بهم فهو أبقى من الماء وأشهر وأعرف ولذلك سموه عرفاً ونشراً ومن أمثلة هذا الطريق لمعاهدتهم ما نرى في قصة عطر منشم ؛ وهي أن قوماً تحالفوا على أن يقاتلوا عدوهم وجعلوا آية الحلف تعاطي عطر باعوه من عطارذ تسمى منشم ، وقصة هذا الحلف مشهورة حتى جرى به المثل ، قال زهير :

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما      تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم  
وكذلك نرى غمس الأيدي في العطر في قصة حلف المطيبين التي نذكرها في الفصل العاشر

وربما ذبحوا بهيمة ورشوا دمها على أجسام الفريقين من الحلفاء علامة لنوالهم الى حد القرابة ، أو لثباتهم على الحلف حتى بسيلوا مهجهم . جاء في سفر الخروج ص ٢٤ عدد ٥ - ٨ : « وأرسل فتیان بنی اسرائیل فاصعدوا محرقات وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران فآخذ موسى نصف الدم ووضع في الطسوس ونصف الدم رشه على المذبح . وأخذ كتاب العهد وفرأ في مسامع الشعب فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له ؛ وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال : هوذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال » فترى في هذا القسم أنهم عاهدوا الرب برش الدم على أنفسهم وعلى المذبح نيابة عن الرب فصاروا حلفاء للرب . وهذا كثير ، جاء في سفر زكريا ص ٩ عدد ١١ « فإني بدم عهدك قد أطلقت اسراك »

وربما وصل بعضهم حبلة بجبل الآخر فصار من حافائه حتى صار الحبل اسماً لعقد الذمة والجوار كما جاء في القرآن «بجبل من الله وحبل من الناس» وقال امرؤ القيس :

انى بمجلك واصل حبلى وبريش نيلك رانش نيل  
وذكر الحطيئة أصل ذلك فقال :

قوم يبيت قري العين جارهم اذا لوى بقوى أطناهم طنبا  
فهذه طرق تأكيد عقودهم بين فريقين ومن الفريقين

ثم ربما حرّموا على أنفسهم بعض المشتبهات حتى يفعلوا بعض  
ما أوجبوا على أنفسهم وسموه نذرا كما نذر المهلهل أخو كليب أن لا  
يشرب الخمر ولا يمس الطيب ولا يرجل شعره الى أن يأخذ بثأر أخيه ،  
وقصته مشهورة وكذلك فعل امرؤ القيس وقال بعد ما حل نذره :

حلت لى الخمر وكنت امرءاً عن شربها فى شغل شاغل  
ثم توسع معناه وصار النذر التزام شىء عن طريق القسم كما قال  
عمرو بن معدى كرب :

هم يندرون دى وانذر ان لقيت بان أشدا

ولذلك سمو النذر يمينا كما قال قبيصة بعد ذكر إيفاء النذر :

فأصبحت قد حلت يمينا وأدركت بنو ثعل تيلي وراجعتى شعرى  
فى أبيات ذكرت فى الحماسة أى بعد ادراك تيلي حل نذرى أى ما  
حرّمته على بالنذر. ويشبه النذر دعوتهم على أنفسهم أو التزامهم إياها سواء  
ان كانوا كاذبين فى خبر أو وعد. كما قال معدان بن جواس السكندى :

ان كان ما بلغت عنى فلامنى صديقى وشلت من يديّ الأنامل

وكفنت وحدى منذراً فى روائه وصادف حوطاً من أعادى قاتل

ومثله ما قال الأشر النخعي :

بقيت وفري وانحرفت عن العلي ولقيت أضيافى بوجه عبوس  
ان لم أشن على ابن حرب غارة لم تحل يوماً من نهاب نفوس  
ومن هذا الدعاء بالمكروه لمحمة في الأقسام الدينية فان فيها خوف  
سخط الله ولعنته ان كذب الخالف بعد اشهاد الله على قوله  
وربما كفوا عن شيء من غير شرط وسموه آية كما جاء في القرآن  
« للذين يولون من نسائهم تربص أربعة أشهر » ثم توسع استعمالها فصار  
قولهم آليت مرادف أقسمت . قال امرؤ القيس :  
« وآلت حلفة لم تحلل »

وقال طرفة :

فآليت لا ينفك كشحي بطانة لعضب رقيق الشفرتين مهند  
وقالت غنية أم حاتم الطائي :  
لعمري لقدماء عضنى الجوع عضه فآليت ألا أمتع الدهر جالعا  
وهذا كثير في كلامهم ، يقولون آليت مرادفاً لأقسمت  
وربما استعملوا لام التأكيد وقالوا لأفعلن أو مثله كقوله تعالى  
« وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » أو  
كقوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره » أو كقول لييد :  
ولقد عامت لتأتين منيتى ان المنايا لا تطيش سهامها  
قال سيديويه رحمه الله « كأنه قال : والله لتأتين » وانما قال هذا على  
طريق التمثيل فانه رحمه الله أراد أن ههنا يمينا كما قال في ذكر لام القسم  
« ومثل ذلك لمن تبعك منهم لا ملأن انما دخلت اللام على نية اليمين ، والله

أعلم « فلم يرد أن ههنا قسماً بشيء بل المراد أن مجرد قوله تعالى « لا ملأن »  
يمين وذلك لأن القسم ليس إلا التأكيد ولا تحتاج إلى تقدير المقسم به في  
كل موضع . وعلى هذا الأصل كل ما ترى في القرآن من لام اليمين وإذا  
جاءت قبلها كلمة تدل على اليقين والجزم كانت مشابهة بكلمة القسم كما  
رأيت في بيت لبيد الذي مر آنفاً ومثله في قوله تعالى « ثم بدا لهم من بعد  
ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ومثله في قوله تعالى « قال فالحق  
والحق أقول لا ملأن جهم » فليس لك أن تقدر مقسماً به في هذه الأمثلة  
التي ذكرناها ولا يليق بها كما يظهر من سياق الكلام فكل ما ذكرنا من  
طريق اليمين والحلف وتعبيراته يدل على أن المقسم به ليس من لوازم  
القسم حتى تقدره كما لم يذكر ، إنما أرادوا بالقسم تأكيداً محضاً للقول أو  
إظهار عزم وصرمة الزموا به على أنفسهم فعلاً أو ترك فعل

## بيانه أن القسم لا يلزمه المقسم به

بإيضاح معاني كلمات أكثر استعمالها للقسم

(٧) ليس القسم بالله أو بشعائره من المعاني البسيطة حتى يوضع له  
اللفظ أولاً فيظن أن المقسم به إذا لم يذكر كان المراد منه القسم بالله تعالى  
إنما القسم التعظيمي نشأ من تركيب دواعي المعاشرة وعقائد الدين ويأتيك  
بيانه في الفصل العاشر ، وأما في هذا الفصل فنوضح معاني كلمات أكثر  
استعمالها للقسم لتعرف أنها في أصلها لم توضع للقسم بالله أو بشعائره أو

بشيء آخر ، وهذه الكلمات هي اليمين والنذر والالائية والقسم والحلف .  
 أما اليمين فقد علمت وجه استعمالها وعمومها للقسم وما فيها من معنى  
 الرهن والكفالة والضمانة فلا نعيده . وأما النذر فهو الابعاد والتحذير  
 ومنه ابعاد الشيء عنك وجعله لله فصار بمعنى التحريم وبهذا المعنى يستعمل  
 في العبرانية ومنه تحريم المشتبهات ثم توسع لالزام الشيء على النفس على  
 وجه القسم كما مر . وأما الالائية فعناها الاقصر عن الامر فيقال الآلى  
 للمقصر العاجز عن الشيء ثم جاء لترك الشيء ومنه الايلاء من النساء على  
 وجه القسم ، ثم توسع في معنى الزام الشيء سواء كان للترك أو الفعل  
 ولكنه أكثر في الزام ما فيه شوب من المضرة فشابه النذر كما قال ابن  
 زبابة التيمي :

آليت لا أدفن قتلاكم فدخلوا المرء وسرباله

ثم توسع وصار مرادفا للقسم كما مر في الفصل السابق . وأما القسم  
 فهو في أصله للقطع ومنه قسمت الشيء وقسمته . والقطع يستعمل لنفي  
 الريب والشبهة ولذلك شواهد كالصريمة والجزم والقول الفصل والابانة  
 والصدع والقطع ، فهذا هو الاصل ثم اختص القسم من بين هذه الألفاظ  
 بشدة الفصل بالقول واستعماله من باب الأفعال لخاصية المبالغة كقولهم  
 « أسفر الصبح » ولا يلزمه أن يكون له مقسم به سواء كان على خبر أو  
 عقد كما قال طرفة في معلقته : « أقسم ربها لتكتنفن » وهذا كثير في كلام  
 العرب . قالت جنوب في مرثيتها المشهورة :

فاقسمت يا عمرو لو نبهاك إذا نبها منك امراعضالا

وقالت ربيعة السلمية :

فاقسمت لا أنفك أحدر عبرة تجود بها العينان منى لتسجبا

وقالت خرنق أخت طرفة :

ألا أقسمت آسى بعد بشر على حى يموت ولا صديق

وجاء في القرآن « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ومنه

قوله تعالى « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلّاها بغرور » فان قيل ان

المقسم به مقدر وهو الله تعالى قلنا ان أردت الاحتمال فلا تنكره انما

قولنا أنه غير لازم ، فلقد رأينا أن القسم يكون بالله تعالى وبغيره ، وربما

يكون مجرداً عن المقسم به وحينئذ لا يراد به الا التأكيد والجزم المحض .

وأما الحلف فمعناه القطع والحدّة فيشابه كلمة القسم يقال : سنان حليف

أى قاطع ولسان حليف أى حديد ذلق وعند الازهرى هذا مأخوذ من

الحلف وهو نبات أطرافه محددة فقولهم حلف على أمر كقولهم قطع به

وهذا هو الاصل ثم اختص مثل القسم بشدة الفصل والجزم فى القول

ولذلك لا يلزمه المقسم به ، ألا ترى أنهم اذا عقدوا الموالاة بينهم باى

طريق كانت سموا حلفاء وقد علمت طرقه المختلفة التى لم يحلفوا فيها بشىء .

فتبين مما مر بك فى هذا الفصل والذى قبله أن القسم لا يلزمه المقسم

به فضلا عن تعظيمه وتلك هى كلمات قد كثر استعمالها للقسم بحيث أنه

لا يلتفت الى أصول معانيها ، ولذلك قدمنا ذكرها . ثم للقسم كلمات اخر

لم يذهل عن معانيها الاصلية ، فاذا نظرنا فيها وجدناها أظهر دلالة على أنها

ليست فى شىء من تعظيم المقسم به ، ونذكر هذه الكلمات فى الفصل الآتى

## ببارة أصل معنى القسم اذا طاله فيه مقسم به

(٨) بعدما علمت معنى القسم المجرد عن المقسم به لا يبعد عنك فهم معناه إذا أقسم فيه بشيء فأنما هو ضم المقسم به مع المقسم كالشاهد على قوله، ولذلك كثر استعمال الواو قبله وكذلك الباء . وأما التاء فأنما هي مقابرة من الواو كما ترى، في تقوى وتجاه. فهذه الحروف للمعية ولضم الشيء بالشيء. ويؤيد هذا التأويل ما علمت من تاريخ القسم وطرقه فانهم لم يقسموا الا على رءوس الاشهاد فكانوا شهداء على أيمنهم لتأكيدها . فان الرجل يجتنب أن يجعل نفسه كاذباً في عيون الناس . ويشهد على هذا المراد ما جاء في القرآن في ذكر ميثاق النبيين حيث قال عزّ من قائل « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقرتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » أى قد أوتقنا هذا العهد بمشهدى ومشهدكم فلا يسوغ الانكار بعد ذلك الا بالفسق . وأصل هذا التأكيده أن المرء اذا قال اشهد به فقد صرح بأنه يقول بعلمه ومشهده لا بسماعه فلا يمكن له العذر ان كذب . ولذلك قال إخوة يوسف عليه السلام « وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » واستعمال هذا الوجه في القسم يرى في قوله تعالى « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » . ثم في الشهادة أكبر وجوه التأكيده من جهة أخرى وهى أن الرجل اذا

قال أشهد أن الأمر كذا فكأنه قال أنا أقول هذا كمن يقوم شاهداً على أمر، والكذب في الشهادة أكبر اثماً وأشدّ ذمّاً. ولذلك ورد النهي عنه خاصة في الشرائع كما جاء في الأحكام العشرة من التوراة ويشبهه ما ذكر القرآن في مدح الأبرار «والذين لا يشهدون الزور» على أظهر تأويله ثم ترى صريح قولهم في اقسامهم «أنا أشهد» و«الله يشهد» و«الله يعلم» وهذا في أكثر اللغات. فانا نرى الأمم في المشرق والمغرب مع اختلاف كثير في عاداتهم لا يختلفون في أنهم اذا قالوا الله شهيد على ذلك أو ما يشبهه أرادوا به القسم. وقال سيبويه رحمه الله في ذكر لام اليمين «واعلم أن من الأفعال أشياء فيها معنى اليمين يجرى الفعل بعدها مجراه بعد قولك «اقسم لأفعلن وأشهد لأفعلن» فصرح بأن أشهد معناه اليمين وان قولك اقسام كقولك أشهد. ويفصل هذه القضية ما جاء في القرآن من التصريح بكون الشهادة والاشهاد يميناً حيث قال تعالى: «اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله» فسمى الله الشهادة منهم ايمانهم. وكذلك جاء التصريح بكون الشهادة بالله يميناً حيث قال تعالى «ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين» وحيث قال تعالى «ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام» فتبين مما ذكرنا أن القسم بالشيء أصله الاشهاد به وتأتيك دلائل أخر على ما قلنا في الفصل العاشر. فأما معنى تعظيم المقسم به فذلك مما انضم به في بعض الأحوال فهو من عوارض القسم وسيأتيك ذكره.



وبعد ما علمت حقيقة القسم وأصل مفهومه نذكر لك المفاهيم التي هي فروع على الاصل ، وهي الاكرام والتقديس والاستدلال ، ونذكرها بالترتيب لتفهم وجوهها وتميز بين معانيها حتى يسهل لك النظر في أقسام القرآن فتعرفها على وجهها وتكون على بصيرة في تأويلها

## القسم على وجه الاكرام

للمقسم به ، والمتكلم ، والمخاطب

(٩) لما كان الصدق من أحب سجايا العرب لاسيما اذا عاهدوا على أمر وأعطوا له أيمانهم واشهدوا عليه ، فاذا صاروا حلفاء أو عقدوا عقد الجوار أو نذروا بأمر أوفوا ذمتهم وعدّوا الكذب فيها بعد القسم عاراً عظيماً وذلة كبيرة لأنّ نقتهم وللحمية التي جبلوا عليها ، وكان في رهن أيديهم للعقود عندهم آية على أنهم يخاطرون لها أنفسهم ، فتضمن القسم مخاطرة النفس كما مر في الفصل السادس ، ولذلك كثر قسمهم بقولهم لعمرى أى أنا أخاطر على هذا القول حياتى ، وربما بينوا هذا المراد كما قالت ربيعة بنت العباس السلمي :

لعمرى وما عمرى على بهين      لنعم الفتى أردتيم آل خثعما  
وقال النابغة الذبياني :

لعمرى وما عمرى على بهين      لقد نطقت بطلا على الاقارع

وهذا كثير . ومن هذه الجهة انضم مفهوم الاكرام بالقسم به فان المتكلم لا يدل على تأكيد قوله بهذا الطريق الا اذا أقسم بما يكرمه ويضن به فهذا هو أصل هذا النوع من القسم، ثم تجاوزوه الى قولهم « لعمرك » أو ما يشبهه لما فيه من اكرام المخاطب كأن القائل أراد انى لا أقسم بعمرى بل بعمرك الذى هو أعز وأكرم على . وهذا هو الاصل ثم ربما لا يراد به الا تأكيد القول مع اكرام المخاطب ، ولما كان هذا أحسن فى التحاور كثر قولهم فى القسم : لعمرك ولعمر أيبك أو وجدك وبعزتك ، وأمثالها . وهذه الكلمات التى ذكرنا كثر استعمالها للقسم فلا حاجة الى نقل السند لها . ولكن يهمنى فى هذا القسم النظر الى أمور : الاول أن المقسم به فى هذه الاقسام ، وان كان عند المتكلم كريماً ومضنوناً به ، لكنه لا يكون مما يعبده ويقدمه كما سترى فى أقسام دينية نذكرها فى الفصل التالى . الثانى : أنه اذا أضيف المقسم به الى المخاطب دل على اكرامه كقوله تعالى « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون » فآكرم الله نبيه بهذا الخطاب ومنه قوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » واذا أضيف الى المتكلم دل على عزته ومنعته كأنه قال : ان حياى وعزى منيع لا يرام . ومن هذه الجهة لا ينبغى هذا القسم لعباد الله الخاشعين المتواضعين ولعل المسيح أشار الى هذا الامر حيث قال عليه السلام فيما نهى عن الخلف مطلقاً « لا تحلف برأسك لانك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء » . الثالث : انه لما كان من بعض وجوه القسم الدعاء بالسوء على الحانث كما مر فى الفصل السادس ربما انضم بهذا النوع ذلك المفهوم كأن

الخالف قال : ان كنت كاذبا ايده عمرى واهيئت عزتى . ولا يخفى عليك مما ذكرنا أن هذا النوع من القسم لا يكون الا باضافة المقسم به اما الى المتكلم أو الى المخاطب . ولا يكون الا بالفاظه الخاصة التي ذكرناها . ولا يكون الا بامور عرف عزتها على المتكلم . فتبين أن إقسام القرآن بالذاريات والعاديات والخمس الجوار الكنس وأمثالها لا يكون من هذا النوع . واعلم أن هذه الاقسام ليست من جهد ايمانهم ، وعلى الاكثر تستعمل لمحض التأكيذ بمعنى أقسمت ولذلك ربما قالوا لعمر الله فلا يريدون بها تمام معناها الاصلى الا اذا بينوه كما مر في قول ربيعة السلمية والتابغة . ثم ان لهم أيمانا غليظة غير ذلك ويأتيك ذكرها في الفصل الآتى

## القسم على وجه التقريس للمقسم به

(١٠) قد ذكرنا في الفصل السادس دواعى توثيق أقوالهم فرمما دعته تلك الدواعى الى مبالغة الاستثياق والمغالاة فيه فكانوا يجتمعون للمعاهدة بمشهد معابدهم وبذلك خلطوا بالقسم جهة دينية وأرادوا به جعل الرب شاهداً على قولهم فان كذبوا فيما أقسموا عليه أسخطوه ، ولما كانت دائرة حكومتهم ضيقة ، ولم تفرق الامم المتجاورة حدود فطرية كالجبال الشاخنة والبحور المتلاطمة لم يمنع الجيران عن الاقتتال غير المعاهدة فصارت هى أحصن معاقلم وربما اتفقت أقوام لم تجمعهم أوامر القرابة على خلاف عدو فعاهدوا على التعاون فيما كان من سلم أو حرب اذا عظم أمرها فزعوا

الى العهد ، ولذلك ترى ابراهيم عليه السلام لما هاجر قومه وسكن في بلاد العرب ورآه أبو ملك ذا باس ومنعة هابه واستعظمه فعاهد به على رسم خاص لكيلا تكون بينهما حرب وصارا حليفين بهذه المعاهدة . والتاريخ شاهد بعظم مكانة المعاهدة في المدن حتى ترى الآن اعتصام الامم العظيمة بها فاعظم بمكانتها في أمم قديمة بنيت على الانفة والقهر والتطاول، بل الناس اليوم كما كانوا بل هم أسوأ لما جمعوا القهر والاستطالة بالخدع والكذب وصاروا قليلي الاعتماد على العهود، ومع ذلك يتشبثون بها ويقسمون عند القضاة والولاية بالله تعالى وبشعائره ، فاجدر بأقوام قديمة أغلب خلالها الصدق أن يعتمدوا على العهد ويجعلوه بناء لتعايشهم ويشيدوه بما ليس فوقه شيء فلذلك تراهم يجتمعون عند أنصابهم وهياكلهم لتوثيق عهودهم بأشهاد آلهتهم على مواثيقهم . والعرب في زمان جاهليتها كانت كاحدى هذه الامم بل هي أشدهم بأساً وألذهم خصاماً ، كما أنها أبرهم ميثاقاً وأوفاهم ذماماً . وكانت الكعبة أعظم معاهدهم وحرمتها أكبر وازع لهم عن الحرب فتظفأ نراها في شهور الحج ، ويأتون الى الكعبة من كل فج محرمين راهبين مختلطين في غاية الامن كالخرفان بعد أن كانوا اسوداً ضارية فيلقى العدو من غير خوف حتى أنهم سموا مكة صلاحاً وأم الرحم ، فاذا حاولوا توثيق عهد جاءوا الى هذا المعبد ليقسموا بالله العظيم على مواثيقهم . ومن شركهم ربما أقسموا عند أنصابهم التي ذبحوا عليها لشفعائهم عند الله الاكبر ، وكانوا يقسمون : اما باهراق دم القربان ، أو بمسح الكعبة كما ستعلم مما ذكرنا في أشعارهم ، أو بغمسهم أيديهم في عطر ومسح الكعبة

بها كما ترى في حلف المطيين الذي كان قبيل البعثة حين أرادت بنو عبد مناف أن يجمعوا أمرهم فوضعوا جفنة طيب لأحلافهم عند الكعبة ، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة فسموا المطيين وكان النبي ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه منهم . أو بمجرد شهودهم عند البيت وعقدهم أيانهم لديه فهذا أصل قسمهم الديني ، ثم توسعوا فاكتفوا بمجرد ذكر الكعبة ومشاعر الحج كما سترى التصريح به في بعض هذه الامثلة التي نذكرها . قال زهير بن أبي سلمى :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم .

وقال أيضاً :

فتجمع أيمن منا ومنكم بمقسمة تمور بها الدماء

وقال أعشى قيس :

فاني وثوبى راهب الحج والتي بناها قصى وحده وابن جرهم

وقال أيضاً :

حلفت له بالرقصات الى منى اذا محرم خلفته بعد محرم

وقال الحارث بن عباد :

كلا ورب الراقصات الى منى كلا ورب الحل والاحرام

وقال النابغة الذبياني :

فلا لعدو الذي مسحت كعبته وما هريق على الانصاب من جسد

والمومن العائذات الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعد

ما قلت من سيء مما أتيت به إذا فلا رفعت سوطي إلى يدي  
إذا فعاقبنى ربي معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالفند  
وقال شأس أخو علقمة الفحل:

حلفت بما ضم الحجيح إلى منى وما شج من نحر الهدى المقلد  
وقالت غنية الاعرابية تصف ابنها:

احلف بالمروة يوماً والصفاء انك خير من تفاريق العصا  
وأما حلفهم بالانصاب فمنه قول المهلهل:

كلا وأنصاب لنا عادية معبودة قد قطعت تقطيعا  
وقول طرفة:

فأقسمت عند النصب أنى لهالك بملتفة ليست بغيظ ولا خفض  
وقول المتلمس:

اطردتني حذر الهجاء ولا والله والانصاب لا تتل  
وقال رشيد بن رميص الغزي:

حلفت بما أترات حول عوض وانصاب تركن لدى السعير  
أى حلفت بدماء جاريات . والقسم بالانصاب قليل جداً فكان جل  
أقسامهم المؤكدة بالكعبة ومشاعر الحج . فان العرب مع اختلاف  
دياناتهم في الجاهلية لم يختلفوا في تعظيم هذا البيت العتيق وعلموا أنه أول  
بيت الله الذي وضع للناس حتى أنك ترى النصراني منهم كانوا يقسمون به  
قال عدى بن زيد وقد تنصر في الجاهلية:

سعى الأعداء لا يألون شرا عليك ورب مكة والصليب

وقال الأخطل وكان مجاهراً بنصرانيته :

حلفت بمن تساق له الهدايا      ومن حلت بكعبته الندور  
وقال أيضاً :

لقد حلفت بما أسرى الحبيج له      والناذرين وماء البدن في الحرم  
وقال أيضاً :

انى حلفت برب الراقصات وما      أضحى بمكة من حجب واستار  
وبالهدى اذا احمرّت مدارعها      في يوم نسك وتشريق وتنحار  
فترى مما ذكرنا أنهم اذا اجتهدوا بالقسم حلفوا بالكعبة ومشاعر  
الحج . وبذلك جاء التصريح منهم ، قال حسان بن ثابت الأنصارى فيما قال  
قبل اسلامه :

انى ورب الخيسات وما      يقطعن من كل سربخ جدد  
والبدن قد قربت لمنحرها      حلقة بر اليمين مجتهد  
وقال عارق الطائى :

فأقسمت جهداً بالنازل من منى      وما سحقت فيه المقادم والقمل  
وبقى ذلك في الاسلام . قال الفرزدق :

ألم ترنى عاهدت ربى وانى      ليين رتاج قائمًا ومقام  
على حلقة لا أشتم الدهر مسلما      ولا خارجًا من فى زور كلام  
وقال الحطيئة :

لعمر الراقصات بكل فجع      من الركبان موعدها منهاها  
فتلك جل أقسامهم الدينية ولا يخفى عليك انهم لم يريدوا بها الا إظهار

الاله المعبود الذي جعلوه شاهداً وبذلك جعلوه وكيلا وكفيلا على العقود. ومرادهم أنهم ان كذبوا بعد ذلك أسخطوا الله كما صرح به النابغة في أبيات مرت في هذا الفصل . وأما مراد الصلحاء من اشهاد الله تعالى فليس الاعتمادهم وتوكلهم على ربهم واظهار جدم في شهادتهم كما سترى في أمثلة تجدها في آخر هذا الفصل . وانما ذكرت العرب في ايمانهم الكعبة والنحر عندها ومسحها تأكيداً لمعنى الاشهاد وإشارة الى طريق قسمهم بالاله عند بيته ولذلك ترى زهيراً يسمي المنحر « مقسمة » وانه هناك تجمع ايماننا واذا كان القسم بمحض اسم الرب عاماً لا ينتبه له بينوه بذكر أصله وصوروه ببيان شكاه ليكون أوقع في القلب . وهذا المراد الذي فهمنا من أحوالهم واشعارهم يؤيده تصريحهم باشهاد الله تعالى في ايمانهم فيقولون « والله شهيد » ، « والله يعلم » أو ما يشبهه كما قال عمرو بن معدى كرب :  
الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسى بأشقر مزبد  
وقال الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله وانى بجرها اليوم صال  
أو كما صرح النابغة الذبياني في ذكر قصة الحية وحليفها الذي لذعت  
ابنه فأت ثم صالحته على أن تعطيه دية ابنه فلما كاد الرجل أن يستوفي  
الدية هم بقتلها ولكن وقاها الله ضربته فحينئذ دعاها للعهد مرة أخرى  
فذلك يذكر النابغة بقوله :

فقال : تعالى نجعل الله بيننا  
على ما لنا أو تنجزى لى آخره  
فقلت يمين الله افعلى اننى  
رأيتك مسحوراً يمينك فاجره



أو كما صرح به النبي ﷺ في خطبة البلاغ فقال بعد ما بلغهم عوازم الأمور «ألا هل بلغت اللهم اشهد» فجعل الرب شاهداً على ما عاهد بهم به. أو كما قال حين رجع إليه ابن اللثبية الأزدي وقد استعمله على الصدقة وأخذ الهدايا فأسخط النبي ﷺ فبعد ما أخبرهم النبي بتبعات الغلول رفع عليه السلام يديه إلى السماء وقال «اللهم هل بلغت» ثلاث مرات. فهذا رفع اليد كان لاشهاد الله تعالى على ما قال كأنه قال اللهم اشهد. وهكذا نرى اشهاد الله برفع اليد إلى السماء في قصة إبراهيم عليه السلام. جاء في سفر التكوين ص ١٤ عدد ٢٢ «فقال إبراهيم (إبراهيم) ملك سدوم رفعت يدي إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض، ٢٣ لا آخذن لا خيطاً ولا شرك نعل ولا من كل ما هو لك» أي أقسمت بالله على ذلك وأشهدته وعاهدته. ورفع اليد في الصلاة للعهد والشهادة وتفصيل ذلك في كتاب أصول الشرائع. أو كما صرح به القرآن في غير موضع وقد مر أمثاله في الفصل الثامن وجملة الكلام أن الأيمان الدينية أيضاً أصلها الاشهاد وإنما اختلط بها معنى التعظيم من جهة المقسم به لا من جهة محض الاشهاد الذي هو أظهر معنى القسم بالشيء. ويتضح هذا الأمر من نوع آخر من أقسامهم التي أشهدوا فيها بالمقسم به على وجه الاستدلال لا غير وهو مسلك لطيف من البلاغة، ونذكره في الفصول الآتية

## القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به

(١١) قد تبين مما ذكرنا أنهم كانوا يقسمون بالشهادة من أنفسهم أو

بالشهادة بالله تعالى واذ كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات كثر القسم بها ، ولذلك ظن من قل التفاته الى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الاشهاد لا يكون الا بالمعبود وعلى جهة التعظيم ، ولكنك اذا سرحت النظر في كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم ربما اشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولا عظموها وانما أرادوا الاستدلال يجعل المقسم به شاهداً على أقوالهم بل ربما تجمع جهة الاستدلال بالأقسام الدينية أيضاً وسيأتيك ذكره في الفصل الخامس عشر . وأما هاهنا فأنما نذكر أمثلة القسم الاستدلالي ونوضح مفهومه . فمنها ما قال أبو العربان الطائي يمدح حاتمًا الجواد :

قد علموا والقذور تعلمه      ومستهل الغرار مطرد

أن ليس عندا عترار طارقها      لديك الا استلالها مدد

ومنها ما قال الراعي :

ان السماء وان الريح شاهدة      والأرض تشهد والأيام والبلد

لقد جزيت بنى بدر بيغيتها      يوم الهباءة يوماً ما له قود

ومنها ما قال النابغة الذبياني :

واخيل تعلم أنا في تجادلنا      عند الطعان أولو بوسى وانعام

ومنها قول عنترة :

واخيل تعلم والفوارس اني      فرقت جمعهم بطعنة فيصل

فقد رأيت في هذه الأمثلة أنهم أشهدوا بالقذور ، والمدية ، والسماء

والريح ، والأرض ، والأيام ، والبلد ، واخيل ، والفوارس . وليس المراد

الا أنك لو سألتهم ونطقن لشهدن على دعوانا

ومن هذا الأسلوب ما قال الفضل بن عيسى بن ابان في وعظه :  
« سل الأرض فقل من شق انهارك وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك .  
فان لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا » ولعل هذا الكلام مأخوذ  
من صحف أيوب عليه السلام ، قال ص ١٢ عدد ٧- ١٠ « فاسئل البهائم  
فتعلمك ، وطيور السماء فتخبرك ، أو كلم الأرض فتجيبك ، ويحدثك  
سمك البحر من لا يعلم من كل هؤلاء أن يد الرب صنعت هذا الذي بيده  
نفس كل حي وروح كل انسى » ومثل هذا ماجاء في صحف موسى عليه  
السلام سفر التثنية ص ٣٠ عدد ١٩ « اشهد عليكم السماء والأرض قد  
جعلت قدامك الحياة والموت ، البركة واللعة ، فاختر الحياة لكي تحيا  
أنت ونسلك » فأراد بهذا الاشارة أن عهدى هذا بكم لا يؤخذ سرا بل  
نجهله مشهودا ومشتهرا فان تقضتمود لزمكم عاره دائما أبدا فتي ما  
أظلمتكم السماء وأظلمتكم الغبراء جاءتكم اللعة والعذاب من فوقكم وتحكم  
فضرب السماء والأرض مثلا لدوام العهد ولزوم ذلة النقص ، فكأنه  
عليه السلام أقام عليهم شاهدين لا يفلتون منهما أبدا وآيتين لا  
تغربان عنهم

ومما يجلو الشبهة عن القسم الذى يشهد فيه بما ينطق بلسان الحال انهم  
كما أشهدوه بكلمة « يشهد » و « يعلم » أو ما يشبههما فكذلك أشهدوه  
بكلمات خصت بالقسم أو نصت له مثل واو القسم ولعمر أو ما يشبههما .  
فان لم يطمئن قلبك بالأمثلة السابقة فدونك أقساما صريحة بأمر ناطقة  
بلسان الحال . فتمها قول عروة بن مرة الهدلى :

وقال أبو أمامة يالبيكر فقلت ومرخة دعوى كبير  
يستهمزى الشاعر بأبي أمامة على استغاثته بقبيلة بكر . فقال هذه  
دعوى كبيرة أى ما أصغر من يدعوهم لنصره فأقسم بشجرة صغيرة لا  
تؤوى من يلوذ بها وضربها مثلاً لأضعف الأشياء ملاذاً . ويتضح هذا  
المعنى مما قال أبو جندب الهذلى :

وكنت اذا جار دعا أضوفة اشمر حتى ينصف الساق مزرى  
فلا تحسبا جارى لى ظل مرخة ولا تحسبته فقح قاع بقرقر

ومنها قسم الهجرس حين قتل جساساً قاتل أبيه فقال « وفرسى  
وأذنيه ، ورعى ونصليه ، وسيفى وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو  
ينظر اليه » فأقسم بهذه الأشياء استدلالاً بها كأنه قال فكيف أترك  
قاتل أبى وأنا قادر على الكر والفر والطعن والضرب فذكر فى قسمه ما  
يصدق دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به  
ومنها قسم طرفة :

وقربة ذى القربى وجدك انى متى يك أمر للنكيثة أشهد  
أراد أنه كيف لا يشهد مجلس ذوى القربى اذا اجتمعوا لأمر كبير ولا  
براعى منزلة الرحم وهى عظيمة عندهم وكانوا يندشدون بالله والرحم فأقسم  
بها استدلالاً على لزوم مشهده . ومنها قول الحصين بن حمام يرثى نعيم  
ابن الحارث خليله :

قتلنا خمسة ورموا نعيماً ، وكان القتل للفتيان زينا  
لعمر الباكيات على نعيم لقد جلت رزيتة علينا

فلم يقسم بالباليكيات إلا لأن حالهن يشهد على جلالة هذه الرزية .  
وهذا النوع من القسم وان لم يكثر في كلامهم لدقة مذهبه ولغلبة أقسام  
أخر ولكنه طريق واضح وأسلوب خاص يجمع أبواباً من البلاغة كما  
سيأتيك بيانها في الفصل السابع عشر . ويوجد في العرب والعجم وكذلك  
على عمومها بإيراد بعض الأمثلة من كلام اليونانيين

## القسم على وجه الاستدلال

في كلام ديماستنس أعظم بلغاء يونان

( ١٢ ) كانت اليونان في أول أمرهم على حرية كاملة لم يملكهم  
ملك بل يدور أمرهم على الجمهورية ، حتى نشأ فيهم فيلبوس أبواسكندر  
الاعظم فتملك عليهم ولكن لم يستقر حكمه إلا بعد مشاجرات بالجمهور  
وكان يحرضهم عليها أعظم خطبائهم ديماستنس الشهير فلما هزمهم فيلبوس  
قام هذا الخطيب على أهل أثينة وهي عاصمة بلادهم ، وألقى عليهم خطبته  
الطنانة بسليهم على هزيمتهم ويمدحهم على اللقاء نفوسهم الى الهلاك لابقاء  
حريتهم ، وكان خطيب آخر يسمى اسكنس يمنعهم عن مخالفة الملك فقال  
ديماستنس راداً على اسكنس ومادحاً أهل أثينة :

« أيها الأثينيون انكم لم تكونوا على الباطل حين خاطرتم بنفوسكم  
في القتال عن حرية يونان وسلامتها ، وفي ذلك لكم أسوة في أسلافكم ،  
فانهم لم يكونوا على الباطل : الذين قاتلوا على مرثن ، الذين قاتلوا على

على سلامس ، الذين قاتلوا على فلاطى . انكم لم تكونوا على الباطل . كلا ، لم تكونوا . أقسم بالذين خاطروا بنفوسهم على معركة مرائن ، الذين من أسلافكم ألقوا بنفوسهم الى الهلاك على ميدان مرائن ، الذين كانوا فى الحرب البحرية عند سلامس وارطيميسيم والذين كافوا الاعداء على فلاطى . فيا اسكنس ان أهل البلد لم يكرموا الفائزين منهم فقط بل أكرمواهم أجمعين باكرام جنازتهم اكراما جمهوريا »

يعنى لم يكرمواهم على فوزهم بل على محاماتهم واستماتتهم للحرية ، فكذلك أتم وان لم تفوزوا فقد بذلتم نفوسكم للدفاع عن الحرية فانظر فى هذا القسم كيف مثل أسلافهم وفعالهم بين أيديهم ليملاً قلوبهم بالفضار المسلم عندهم فضرب لهم مثلاً وجعل حسن مساعيتهم شاهداً على حسن مسعاة المخاطبين . وأخرج الكلام مخرج القسم الذى بنى على التأكيد . واشتهر هذا القسم لبلاغته واستجاده السلف والخلف من الناقدين . ولكن أرى المتأخرين منهم أخطأوا كما أخطأ علماءونا فان لانجنوس اليونانى الذى نشأ بعد ستمائة من ديماستنس وكان معلماً للبلاغة فى أثينة ومشهوراً بغزاره العلم فى زمانه ، ذكر هذا القسم فى كتابه على البلاغة وقال فيه ان حسنه فى غاية تعظيم المقسم بهم فان ديماستنس جعلهم بمنزلة الآلهة وانكر على من قال ان هذا الاسلوب مأخوذ من قول الشاعر بوليوس الذى أقسم باكليبه . وانى أذكر قسم بوليوس أيضاً ليكون مثالا ثانياً ولتعلم أن رأى الذى أنكره لانجنوس هو رأى القويم

## القسم على وجه الاستدلال

في كلام بوليوس الشاعر اليوناني

(١٣) كان من سنن يونان في زمان حريتهم أنه اذا فعل أحد منهم أمراً عظيماً نافعاً لهم عصبوا برأسه اكليلاً تشریفاً لقدره واعترافاً بحقه ، وكان الشاعر بوليوس نال منهم هذا الاكرام في حرب مران لما أبلى بلاءً حسناً . ثم بعد ذلك اتهمه بعض حساده بأنه ساخط بالقوم ليزرع بهذه التهمة بغضه في قلوبهم فازاح بوليوس هذا الظن عن نفسه بقول ترجمته :

لا واكليلى الذى نلت لدى مراننا

لا يرانى شامت أضمر سخطاً كامنا

فاقسم باكليمه الذى ناله من أيدي قومه استدلالاً على عدم سخطه بهم كأنه قال كيف أسخط على قومي بعد أن أكرموني بهذا العز . فترى في هذا المثال كما رأينا في أمثلة آخر أن القسم لا يختص بالاله وبذلك ينهدم ما بنى عليه لانجنوس رأيه وتبين لنا أن من جعل قسم ديماسنس مشابها بقسم الشاعر بوليوس أصاب المراد فانهما استعماله على وجه الاستدلال وضرب المثل وليس المراد منه تعظيم المقسم به فان كان المقسم به في نفس الامر عظيماً فهذا من محض الاتفاق ولا يتعاق به غرض القسم . محض القسم ساكت عن عظيمته ألا ترى عروة بن مرة الذى مرَّ شعره في الفصل الحادى عشر كيف أقسم بالرخة وضربها مثلاً لغاية الذلة والضعف

## شرح دلالات القسم الاستدلالي

(١٤) بعد ما وقفت على أمثلة القسم الاستدلالي من النثر والنظم والعرب والعجم وتبين لك أنه أسلوب خاص من البلاغة نريد أن نجمع لك في هذا الفصل ما فيه من الدلالات الاستدلالية التي ذكرناها في الفصول السابقة أشتاتا نتفهمها كل الفهم فان ذلك من مهمات مباحث هذا الكتاب ثم تجد زيادة عليه حين نذكر ما في القسم من أبواب البلاغة فاعلم أنهم اذا شهدوا على وجه الاستدلال ربما أرادوا به شدة وضوح المقسم عليه كما ترى في قول الراعي :

ان السماء وان الريح شاهدة والارض تشهد والايام والبلد  
يعنى ان الامر بلغ غاية الشهرة والمعرفة حتى أن كل شيء يشهد به  
فذهب في آفاق السماء وأفطار الأرض وجرت به الريح في كل جانب وبلغ  
كل بلد وكفلت الايام بابقائه على صفحات الدهر . وغاية التأكيد في أن  
هذه الأشياء التي لاروح لها تشهد به فكيف بأهل السمع والبصر  
والنطق

وهذا بحسب الظاهر مبالغة ولكنه بنى على الصدق فان المراد به  
غاية الشهرة وعموم العلي به ويشبه ذلك ما مر من قسم موسى عليه السلام  
حيث أشهد السماء والأرض . وربما أرادوا به ضرب مثل على وجه التشبيه  
ادعاء من التكلم كما ترى في قسم عروة بن مرة فانه ضرب المرخة مثلا بقبيلة  
بكر التي استغاث بهم أبو امامة فشبههم بالمرخة وهذا محض الادعاء :



ولكن الدعوى اذا كانت بطريق الاشارة يتلقاها المخاطب بالقبول مثلما تراه في التشبيه والكناية كما بينوه في كتب المعاني ونرجع الى هذا البحث في الفصل السابع عشر ان شاء الله تعالى . وربما أرادوا به تأييداً للقول فاشهدوا بالمقسم به لكونه مؤكداً للمقسم عليه كما ترى في قول بوليوس فانه أشهد بأكليله الذي أكرمه به قومه وهو أقصى الغاية عندهم في التعظيم فكأنه قال في رد قول مخالفه انى بعد هذا الشرف الدائم كيف يظن بي أنى أسخط بهم . وكان في هذا الاستدلال ضعف فانه يمكن لمخالفه أن يقول أنت مع هذا الاكرام العظيم تبدلت وصرت جاحدا نعمة فاكد قسمه بالاكليل بذكر شرف نفسه فقال انى اقتنيه في أشهر حروبهم التى بدت فيها منازل سراة القوم فكنت فيها من الطراز الاول . فبعد هذا التأكيد لم يترك نلصمه الا محل حسود يسيء الظن بالكرام ولكن في هذا الاستدلال لا يتم التقريب بين الدعوى ودليلها . وربما أرادوا به حجة قاطعة على قولهم بذكر أمر جامع بين المقسم به والمقسم عليه كما ترى في قسم ديماستنس فانه ذكر حسن فعال أسلاف المخاطبين وهم لا يشكون فيه واحتج به على حسن فعال الذين اتبعوا أسلافهم ولذلك صرح أولا « بأن لكم اسوة في أسلافكم » وهذا العمرك أحسن وجوه هذا النمط من القسم

## الرد على المخوض من نفس القرآنة

على ما فيه من الأقسام الاستدلالية

(١٥) بعد ما تبين لك أن القسم أصله الاستشهاد وأنه لا يراد منه التعظيم الا اذا كان بالله تعالى وبشعائره، وعلمت أنه ربما يكون لمحض الاستدلال لا يخفى عليك أن أقسام القرآن التي بنى عليها المعترض الشبهتين الاخيرتين ليست الا للاستدلال والشهاد بالآيات الدالة فان قال قائل هب أن أصل القسم هو الشهاد ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كالمنقول وأصله كالذهول ولذلك نهى عن القسم بغير الله تعالى فلا يصار الى الأصل الا بدليل واضح بين . قلنا سلمنا ولكننا لم نذهب الى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن الا بدلالة القرآن من وجوه كثيرة ودونك بيانها : الأول ما علمنا من سنة القرآن من استعماله بعض الكلمات مرة لا مبد وأخرى لله تعالى .

وحيث يميز بين وجوهها حتى لا يكون مخالفاً بجلالة ربنا جلّت عظمتها مثل كلمة الصلاة فانها الدعاء من العبد والرحمة من الله تعالى وكلمة الشكر فانها من العبد الاعتراف بالنعمة ومن الله تعالى قبوله الحسنات من عبده ، وهكذا التوبة ، والسخط ، والمكر ، والكيد ، والأسف ، والحسرة وغيرها . بل ما من كلمة الا يميز بين وجوه معانيها اذا استعملت لله تعالى . ويؤخذ بأحسنها ويترك ما لا يليق بذاته المقدسة . وقد علمنا الوجوه الكثيرة للقسم فحملناه على وجه يليق بجلالة ربنا وأخذنا بما « هو خير وأحسن تأويلاً » . والثاني ما تهتدى اليه من حمل النظر على

التظير وتفسير الآيات بعضها ببعض فانك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة تارة على أسلوب القسم بها وأخرى على أسلوب الآية والعبرة وكلها اشهاد لمن يتفكر فيها . قال تعالى « ان في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لايات لقوم يعقلون » ومثل هذا كثير فيذكر الله تعالى آياته ويحتج بها . ثم ترى هذه الآيات أشهد بها القرآن على أسلوب القسم فأشهد بالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والفجر ، والضحي ، والربح والسحاب ، والجبال ، والبحر والبلد ، والانسان والوالد والولد ، والذكر والانثى ، والشفع والوتر . فكونها آيات دالة له نظير ولا سبيل الى ارادة تعظيمها . والثالث ما يذكرك عليه نفس المقسم به فان العاقل لا يتوهى أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس لاسيما الذي ليس له كبير تقديس كخليل العادية والريح الذارية وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة منذلة طائعة ففي نفس المقسم بها دلالة على أن المراد محض الاشهاد بها . والرابع ما ترى من المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه فان القرآن وضع أكثر هذه الأقسام بحيث لا يخفى على العاقل جهة دلالتها على ما أقسم عليه ولذلك ترى صاحب التفسير الكبير رحمه الله مع ظنه بأن المقسم للتعظيم وتكافئه ابيان فضائل التين والزيتون لم تخف عليه جهة عامة في

دلالة الأقسام التي جاءت في اول سورة الذريرت فقال « انها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان » ولو تأمل في سائر أقسام القرآن التي جاءت على وجه الاستدلال لاختار هذا التأويل في جميعها . والخامس ما ترى من تعميم المقسم به على طريق تعميم الآيات الدالة كما قال تعالى « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » فلم يترك شيئاً الا وقد أقسم به كما قال « وان من شيء الا يسبح بحمده » فلم يترك شيئاً الا وقد أنطقه بحمده وأشهده بمجده . ويشبه هذا التعميم استعمال المتقابلين حيث أقسم بالليل والنهار والارض والسماء ، فكيف يظن أن الله عظم كل شيء والسبيل الى جعله آية دالة ظاهر فلا يصار الا اليه . والسادس : ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلاً للعقلاء كما قال تعالى « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر والليل اذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر » فهذه الجملة الاخيرة مثل ما تجد كثيراً في القرآن بعد ذكر الدلائل كما جاء في سورة النحل « ان في ذلك لايات لقوم يعقلون » أو كما جاء في سورة طه « ان في ذلك لايات لاولى النهى » أو كما جاء في سورة آل عمران « ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار » وهذا كثير . فهكذا هاهنا بعد ذكر الاقسام نبه على كونها دلائل لذي عقل وبصيرة ويشبه . ذلك ما جاء من التنبيه بعد القسم في سورة الواقعة حيث قال « فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسام لو تعلمون عظيم » أى ان فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به . والسابع ما ترى في ذكر المقسم به على صفة خاصة تشير الى جهة الاستدلال كقوله تعالى « والنجم اذا

هو « وقوله تعالى « فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس » وقوله تعالى « والّصّفّت صفاً فلزّ اجرات زجراً فالتاليات ذكراً » وقوله تعالى « والذّريرت ذرواً فالحمالات وقرأ فالجاريّت يسراً فالقسمتُ أمراً » وقوله تعالى « ولا أقسم بالنفس اللوامة » وغيرها فهوى الثريا وخنوس النجوم وصف الملائكة وذرو الرياح وتقسيمها الامور وملامة النفس أقرب الى الاستدلال منها الى التعظيم . والثامن ما يسبق المقسم به من صريح ذكر الآيات الدالة ثم يعبر عن المقسم به على وجه يشير الى تلك الآيات كأنه مهد من قبل لما اريد من وجه الاستدلال وهذا مما يهتزله المتدبر في نظم القرآن . ويتضح ذلك بالمثال قال تعالى في سورة الذريرت « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون » أى ان لكم فيهن آية على الربوبية والدينونة كما فصل ذلك في غير موضع من القرآن فبعد ما ذكر أن الأرض والسماء قد اشتملت على آيات الجزاء بل على نفس الجزاء بقوله « فورب السماء والأرض انه (أى الدين والجزاء وليس المراد به القرآن كما توهموه) لحق مثلما أنكم تنطقون » فلا يخفى أن هذا القسم مع دلالة على التقديس لكونه اشهاداً بالله تعالى قد تضمن الاستدلال بآيات فى الارض والسماء لما عبر عن المقسم به على صفة تشير الى ما سبق من صريح الاستدلال بالآيات الدالة ولما كان وجه التعظيم فى هذا القسم أظهر وكاد يشغل عن وجه الاستدلال حسن التمهيد له من قبل . وفى هذا القدر كفاية ان شاء الله تعالى . فان سأل سائل كيف خفي الصواب على العلماء أم كيف يطمئن القلب بهذا القول المبتدع أجنبناه بما نذكره فى الفصل الآتى

## بعض أسباب خفاء الوجود الصحيح

في تأويل أقسام القرآن

(١٦) مما ذكرنا من أقوال العلماء في الفصول السابقة نرى أن هذا المعنى للقسم ليس بيدع بيد أنه خفي عليهم بعض وجوهه ومعانيه فلم يتمسكوا به كل التمسك فاما ان تركوه في بعض المواضع واما خلطوا به معنى آخر . ولندكر هنا بعض أسباب الخفاء ليظهر عذرهم . فالسبب الأول : أنه في بعض المواقع كان المقسم به في نفسه شريفاً مثل القرآن والطور ومكة ، أو الشمس والقمر والنجوم ، أو العصر والليل والنهار ، فلم يحتاجوا الى جعل الاقسام به استدلالاً وقد ظنوا أن القسم بالشريف العظيم عام شائع . فاذا وجدوا المقسم به ذا احتمالات أخذوا منها ما يشبه بالشرافة وبهذا السبب منعوا عن التعرّيج الى السمات الصحيح وذهبوا من القسم في مذهب عام كما أن الماء يجري الى الخفض ان لم يصرفه صارف . والسبب الثاني : أن الحكماء نجحتهم الامور الكلية فلا يعجبهم رأى ينخرم بعض جوانبه : ووجه الدلالة في الأقسام مع ظهوره في بعض الامثلة كان خفياً في بعضها ولما لم يتبين لهم وجه الدلالة فيه زعموا أن هذه الكلية لا تصح ها هنا وليس من دأب أكثرهم أن يقروا بالعجز ومحولوا العلم الى الله تعالى كما ترى ذلك في مسألة نظم القرآن فانه ظاهر واضح في أكثر المواضع ولم يشكل كل الاشكال الا في قليل فلو اعترفوا بالجهل كما فعل

بعضهم لكان حرياً بهم ولكن تراهم لم يعتمدوا على وجود النظم وإنما أرادوا بذلك أنه ليس كلياً فظن العوام أن لا نظم في القرآن وكلها اقتضاب والصواب أن نتحرى في كل أمر ما هو الاولى والاحسن وقد دلت عليه دلائله وندت مخايله وزجج جانبه وتوضح لاحبه وتكون كما قال تعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب » فان أشكل علينا بعض وجوهه نسبناه الى قلة علمنا وسيجعل الله يسراً بعد عسر وجبراً بعد كسر والعلوم متزايدة ، والله يهدى من يشاء . فمحض غموض جهة الاستدلال في بعض الاقسام لا يصرفنا الى رأى باطل مع سخافته . ألا ترى الآيات الدالة ليست كلها ظاهرة الدلالة بحيث لا تحتاج الى تأمل والقرآن صرح بذلك وندب الى التفكير والتدبر فيها بل صرح بأنها لا يفهمها الا العاقلون المتقون كما جاء كثيراً في القرآن والصحف الاولى ومع ذلك لا نشك في أنها دلائل قاطعة وحجج ساطعة فهذا التحرى هو الخطوة الاولى للتأمل واعمال العقل حتى تنحل الاشكالات ويطمئن القلب بعد العلم . وانى بحمد الله تعالى لم أطمئن لهذا الرأى الا بعد أن تأملت في جميع أقسام القرآن حتى تبين لى أنها دلائل ولم بدانى عليه الا القرآن من وجوه عديدة كما مر ذكرها آنفاً . والسبب الثالث : وهو مدار الاولين أنهم لما وجدوا القسم بالله تعالى وشعائره شائعاً غلب على ظهم أن ذلك أصله فاذا وجدوا القسم بغيره جعلوه مجازاً ثم رأوا أن المجاز لا يصار اليه الا اذا تعذرت الحقيقة ولكن محض الكثرة ليس دليل الاصلية ولا المصير الى المجاز مشروط

بتعذر الحقيقة بل الصواب أن تأخذ من المعاني ما هو أحسن وأحرى وأشبه بالسياق وما له نظائر في باقي الكلام . فلما جعلوا الفرع أصلاً خفي عليهم حقيقة معنى القسم بالشيء وهو الاشهاد به فقولهم في بعض الاقسام انها دلائل لا يمكن الا لشدة وضوح هذا المراد فيها كأن القرآن دعاهم بصوت جهورى وجندهم ببطش قسورى الى صحيح معناه ومع ذلك هم على الظن الاول فيه . لكن الخفاء من جهة القرآن بل من بعض الظن منهم عفا الله عنهم . والسبب الرابع : شهرة بعض أمور ذات وجود على وجه خاص مثل قصة هلاك فرعون وقومه فان المشهور أنهم أهلكوا بمحض الماء ولا يرون فيه دخلاً للريح وحقيقة الامر أنه كان من عجائب تصاريدها بأمر ربها وهكذا الامر في طوفان نوح عليه السلام كما بيناه في تفسير سورة الدريث فهما كانت المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه منوطة ببعض هذه الوجوه خفي وجه الاستدلال على من خفي عليه ذلك الوجه ولما لم يكن تفصيل هذا القصص من مهيات العقائد والاحكام لم يلتفت اليها علماءنا رحمهم الله تعالى . والسبب الخامس : وهو يشبه ما قبله أن علماءنا رحمهم الله تعالى شغلتهم العلوم العقلية والنقلية المشهورة عن علوم هي أكبر منها نفعاً في التفسير وذلك هو علم لسان أوحى به الينا والى من قبلنا وتاريخ هذه الامم السامية وعلومهم وآدابهم ، واذ هي لا تختص بمسئلة القسم لا بنسب القول فيها ولا حاجة الى استقصاء أسباب الخفاء فايكفنا هذا القدر منها



## ذكر بعض ما في القسم

من أبواب البلاغة ولطائفها

(١٧) لعلك تقول ان كانت هذه الأقسام دلائل لا غير فلم  
 لم تذكر على أسلوب الاحتجاج الصريح؟ فاعلم أن الاستدلال اذا كان على  
 أمور لا تتعلق بها الرغبة والنفرة مثل ما ترى في العلوم الطبيعية والرياضية  
 أو في تاريخ الاولين على الاكثر كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح فاما  
 اذا استدللنا على أمور نفسانية يتصادم فيها من القائل والسامع حث  
 واستنكار وزجر واستكبار والحاح واصرار، احتجنا الى ايراد الأدلة على  
 وجود مختلفة من أساليب الكلام متفاوتة في الوضاحة واللطافة والقوة  
 والحدة. وربما نبدل الاسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع أو الرجاء  
 أن ينجح فيه بعض الاساليب أكثر من بعض كما صرح به القرآن  
 « انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون » وكما فعل ابراهيم عليه  
 السلام مع الذي حاجه في ربه فترك الاصرار على الدليل الأول حين لم  
 يفهمه الخصم وعمد الى دليل آخر أقرب الى فهمه « فهت الذي كفر »  
 فهذه جملة الجواب ثم في أسلوب القسم معان مفيدة للاستدلال مما يفتح  
 عليه من البلاغة أبواباً ويلقى عليه من المحاسن جليلاً. ونذكر هنا بعض  
 تلك المعاني ونذكر على ما فيه من البلاغة. الأول: هو اظهار التأكيد  
 والجد في القول كما ترى في قول المرسلين من النصارى حيث جاء في

القرآن « قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون ، وما علينا الا البلاغ المبين »  
أو كما ترى في قوله تعالى « والسما ذات الرجع ، والارض ذات الصدع ،  
انه لقول فصل ، وما هو بالهزل » وقد علموا أن الحر المهذب اذا أقسم  
على أمر فقد بالغ في اظهار الجدم منه ونفى عن نفسه الهزل ، ولذلك كثر  
القسم في أوائل النبوة حتى تبين لهم جده وقد صرح في المثالين المذكورين  
وذلك لخصوصية في أسلوب القسم لا لأن فيه تعظيماً كما ترى تأكيد  
الاثبات والانكار بأسلوب الاستفهام أو التعجب في أكثر الألسنة  
أو تأكيد التعجب بالنداء كقولك يا للماء « ويالقوى للشباب المبكر »  
والثاني كون القسم انشاء وذلك يهيم طريق الانكار على الخصم فانه ان  
شاء أنكروا جواب القسم لكونه خبراً ولكن لا يسحله أن ينكر نفس القسم  
لكونه انشاء كما انه لا يتوجه الى انكار الصفة مع انها في الحقيقة من  
الأخبار وربما يجمع أقسام القرآن هذين الخبرين كالقسم بالقرآن المجيد  
وباليوم الموعود وبالقسمتِ أمراً وبالفارقتِ فرقا وبالصفتِ صفا فان  
شرحها رأيت فيها جملتين خبريتين مثلاً ان الملائكة صافون كالعبيد وان  
الرياح تفرق وتميز حسب أمر الله وان لهم يوماً موعوداً وان هذا القرآن  
مجيد . فهذه أخبار أدمجت في الصفتِ ثم زيد عليها ما أدرج من القسم  
وهي ان هذه الأشياء شواهد ودلائل . فان كان ذلك مما ينتبه الخصم  
لانكاره فتارة يصرف الخطاب الى النبي كقوله تعالى « يس والقرآن  
لحكيم انك لمن المرسلين » وتارة يحذف جواب القسم الذي يكون  
جملة خبرية فينثذ يكتفى بالمقسم به ويبادرهم بكلام آخر مؤيد لما حذف

لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الانشاء الى الخبر فينازع فيه ولكي يجد الكلام فرصة فيه فيستمع بعد القسم لما ينتظر جوابه فيهمج عليه ما يؤيد الاستدلال المقصود من الكلام السابق ، كقوله تعالى « ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » فاكتفى بالجملة الانشائية واجتنب الخبرية وقد فرغ عنها بما ذكر في القسم من صفة القرآن كأنه قيل « قد شهد القرآن أنه لذكر ونصح لهم » ثم ذكر من خصائصهم ما لا ينكرونها بل يباهون بها وأشار الى ان انكارهم ليس الا لمخيتهم الجاهلية وجداهم بالحق . ومثل ذلك قوله تعالى « ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ » أى قد شهد القرآن انه لندير مبين من الله تعالى بالبعث ، ولكنهم ينكرونه لما يعجبون أن يأتي به منذر منهم . فأما اذا كان القسم مما لا ينكرونه لم يحذف الجواب كقوله تعالى « حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فذكر في القسم كونه كتاباً مبيناً وفي الجواب كونه قرآناً عربياً ولا ينكرون شيئاً منهما . وأما كونه منزلاً من الله تعالى فلم يخبر به كدعوى على حدة بل جعله أصل الكلام بما خاطبهم بنفسه فلا يتجه الانكار اليه . وهذا - ولو لا كراهية الخروج عن موضوعنا لبطنا الكلام في حذف جواب القسم وفوائده وذكره تحت آيات القسم أولى والثالث ايجاز هذا الاسلوب للاستدلال فان اللفظ اذا قل يترأى للمعنى متجرداً عن حجبه فيزيده تنويراً وتأثيراً كأنه أرهف حده وقرب بعده وهذا مما يجعل الاستعارة أحياناً أبلغ من التشبيه ولا حاجة الى توضيح

حسن الایجاز فانه مبسوط في كتب البلاغة وقد بالغ في استحسانه بعض كتاب زماننا فقال ان الایجاز هو البلاغة ، وتكلف في رد جميع المحاسن اليه . وانما جعله أصل البلاغة لتشعب أفنائه وتقلب ألوانه فلم يدخل باباً من أبواب البلاغة الا ورأى الایجاز هناك موجوداً فقصر النظر عليه . ومن فوائد الایجاز أنه يمكنك أن تجمع دلائل عديدة في قرب بعضها من بعض فاذا دلت على أمر واحد من جهات مختلفة كن أشد أثراً وأحکم أمراً كما ترى في أقسام سور الطور والبلد والتين . فلو فصل فيها الكلام وشرح الأدلة لتشنت النظام ووهنت قوته ويقرب منها أقسام سور الفجر والشمس والليل . هذا - والعرب لذكأهم وكبرهم كانوا يحبون الایجاز أكثر من أفوام آخر ولذلك لا ترى شيئاً من القرآن الا ومعناه أوفر من اللفظ فان أطنب قولاً من وجه أوجزه من وجوه آخر ولذلك لا تنقضى عجائبه

والرابع اشراك السامع في استنباط الدليل ، وذلك مما يكسر سورة خصامه فانه اذا علم شيئاً بعد التأمل فرح به واهتز له فان المتكلم اذا جعل السامع منفعلاً محضاً أنعبه وصار كلامه عليه ثقلاً وهذا اذا لم يخالف رأيه فأما اذا خلفه انماز منه وسد منه أذنه ولذلك ربما يستعمل الاستفهام بدل الاخبار كقولك « ألا ترى ذلك » و « هل سمعت هذا » أو كما استفهم النبي عليه السلام في خطبة الوداع حيث سأهم أي بلد هذا وأي شهر هذا وأي يوم هذا؛ فذلك يجلب الالتفات وينشط السمع وقد جمع القرآن هذين الأمرين في أول سورة الفجر فأشهد بأموور تدعو الفكر

الى استنباط الدلائل على تدبير الله تعالى وتقديره وعدله . ثم اتبع ذلك بقوله « هل في ذلك قسم لذي حجر » ومثل ذلك قوله تعالى « والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب » ورب مستدل حاذق يسوق المخاطب الى الدعوى بسهولة من غير تسفيه رأيه حتى يظن أنه هو الذي اهتدى اليها من قبل نفسه . وهذا مما يُصير الكناية أحياناً أبلغ من التصريح . وترى ذلك بيننا في أقسام القرآن فاتها تعرض على السامع أمراً يدعو الى استعمال عقله وربما تسوقه الى سمت الدعوى بلطافة وتدرج كالقسم بالذرية حتى انتهى الى قوله « فالقسمتُ أمراً » ومثل ذلك قسمه بالرسالات عرفاً حتى انتهى الى قوله « فالفارقات فرقا فالملقيت ذكراً عذراً أو ندراً » فلو أُلقي عليه أولاً أن الرياح تفرق بين قوم وقوم أنكر ذلك

والخامس وضع الدليل في غير صورته لكيلا يبادر المنكر الى الخاصة وذلك غير معنى الانشاء الذي مر آنفاً في الوجه الثاني فانه يسد باب الانكار وهذا انما يذهل عن الخصاص ولكونه غير الانشاء تجده باقياً في صورة الخبر أيضاً مثلاً ان حولت قوله تعالى « والعصر ان الانسان لفي خسر » وجدت بعد هذا التحويل من الانشاء الى الخبر أيضاً فرقا واضحا بينه وبين صريح الاستدلال وهو أن تقول : ان الانسان لفي خسر لان مر الزمان ينقص العمر . فان هذا الاستدلال مع صحته وظهوره يدعو الخضم لحبه الجدل الى الانكار به أو بالذي ينتج منه وهو الاعتماد على الايمان والعمل الصالح فانه سيقول: كلا ، ان الانسان لفي ربح عظيم فانه

يشترى اللذائذ ويقتنى المنى بهذا العمر الذي لا بد أن يفنى . أو سيقول:  
كلا، فانه اذ لا بد من البلى' فالتمتع بالشهوات أولى ، كما قال الملك  
الضليل بن حجر القتييل :

تمتع من الدنيا فانك فان من النشوات والنساء الحسان  
ولا شك ان تلك حجة داحضة ولكن اذا فتح باب الجدال كثر  
القييل والقال . وكما زدت ايضاحاً ازداد الخضم جماحاً . فيحسن أحياناً أن  
تذهله عن وجه النزاع ، فان للانسان به ضراوة كضراوة السباع . وكانت  
العرب أشد الامم جدلاً وأحدّهم مقولاً كما قال تعالى « ما ضربوه لك  
الا جدلاً بل هم قوم خصمون » وكذلك سماهم « قوماً لداً » واعلم أن  
هذا الوجه والذي قبله مبنيان على لطافة الأدلة في الأقسام فانها كما تصرفهم  
عن الانكار والنزاع فكذلك تنشطهم للفكر والاستنباط

والسادس : ما يعطى أوائل السور من نضرة بهجتها ورونق ديباجتها  
فتامع الأقسام في قسامات السور على الاكثر كالغرة البارقة ، وأما  
الذي جاء في أثناء السورة فأنما هو قليل ومثاله كجىء المطلع في  
أثناء القصيدة . وليس في كل قسم تزيين ولكنه لما كان مما يستفتح  
به الكلام جملة سبباً لتزيين الفواتح بأن اصطفى له كلما ان صور على  
عنوان الكتاب أو تمثل للعقل في مطلع الخطاب ملأ العين والفؤاد  
بحسنه وجلالته بل يحل أكثرها عن التصوير لجمال عظمتها وضيق نطاق  
الخيال عن سعتها . ولا شيء من أساليب الكلام اصلح للتصوير من  
القسم فان الذي أقسمت به دعوته كالشاهد فأوقفته بين يدي المخاطب

متمثلاً ، فلما أراد الله أن يوشى عنوان السور بالوان الصور بدأها بأقسام خاصة . فترى أحياناً صورة أمر واحد كالقلم الكاتب والنجم الثاقب والخليل العاديات والرياح الذاريات والملائكة الصافات . وتنظر أخرى الى صور عديدة يضمها أمر جامع بينها كالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين . أو كالطور والكتاب المسطور والبيت المعمور والسقف الرفوع والبحر المسجور ، أو كالشمس والقمر والليل والنهار والأرض والسماء والنفس وغير ذلك مما يدل على أحوال أو أحداث يستدل بها على مسألة مهمة ولا منزلة عند العقل لهذه التصاوير لولا أن فيها دلائل على أمور عظيمة وهذا لرعاية جانب المستمع لكيلا يتنفر فيسأله ، ومن كمال التبليغ واتمام الحجة تليين القول وتأليف القلب . وقد أمر الله الأنبياء بهذا كما قال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما الى فرعون « فقولوا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى »

والسابع : تقديم الدليل على ذكر الدعوى فيلقى أولاً على الخصم أمراً يوجهه الى سمت لا بد أن يجابهه الى الدعوى ولكن المنكر اذا علم من قبل ما تريد الاستدلال عليه أخذ سمتاً آخر وتنكب عن الوجه الصحيح فاذا لم تذكر الدعوى يوشك أن يتوجه الى صراط مستقيم فاذا سار على قصد السبيل قدته الى آخر النتيجة . ومثال ذلك كل ما ذكرنا في الوجه الرابع والخامس

والثامن : كون القسم من جوامع الكلم فان المقسم به لا يذكر معه جهة الاستدلال فلوزم به جهة خاصة كان دليلاً واحداً ولكن الشيء الواحد يجمع معاني كثيرة ووجوهاً مختلفة وللمتوسم فيه دلائل

شقي . وهذا الامر مشترك في ما ذكر من الامور الدالة على أسلوب الآية ، فجعل شيئاً واحداً موضعاً لاستنباط دلائل كثيرة كما قال تعالى « ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريم من آياته ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » وكما قال تعالى « وفي الأرض آيات للموقنين \* وفي أنفسكم أفلا تبصرون » فمن يحصى ما في الأرض والنفس من الآيات الدالة على القدرة والعظمة والرحمة والحكمة ثم على التوحيد والرسالة والمعاد كما فصلناه في كتاب حجج القرآن فاذا أشهد الله تعالى بعض خلقه ثم ذكر معه من المطالب الدينية التي يستدل عليها ترك التأمل أن يستنبط الدلائل من وجوه كثيرة وبعد الاتفاق في المستدل عليه وبعد رعاية نظام الكلام لا بأس باختلاف الدلائل وطرقه فانها تتنوع وتتكرر حسب مدارج الافهام والعقول وجعل الله القرآن جم الفوائد لا تنقضي عجائبه كما لا تنقضي عجائب خلقه وحكمة صنعه قال عز من قائل « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم » ولنكتف بهذا القدر من أبواب البلاغة التي تجرد في أقسام القرآن وما أردت الاستقصاء ومن يطيقه ؟ . وقد تبين مما مر معنى القسم ووجوهه وبذلك انحسرت الشبهتان الاخيرتان المهمتان وأما الشبهة الاولى فاضمحلت أيضاً لما ذكرنا من حاجة الناس الى القسم وضرورته في عزائم الامور وموقعه في التعايش والتعاشر بين الامم والملوك والراعايا كما مر في الفصل السادس والعاشر . وقد ورد القسم كثيراً في الكتب المقدسة وكلام الرؤساء والبلغاء فلم يبق الآن الا تبين علة النهي عنه



## الفرق بين ما يحسن وما لا يحسنه من القسم

(١٨) لما كان في القسم اما اشهاد بنفس المتكلم او اشهاد بالله تعالى وفي ذلك مخاطرة المرء بعزه ودينه لم يحسن التلاعب به فينتجه النهي اليه من ثلاث جهات (١) اما من جهة المقسم عليه (٢) أو من جهة المقسم به (٣) أو من كليهما فالما من جهة المقسم عليه فمن حلف على أمور سخيفة أظهر عدم مبالاته بشرف نفسه ولذلك جاء في القرآن صيغة المبالغة في شناعة الحلف حيث قال تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين » فدل على أن من حلف على كل أمر جل أو دق فقد أهان نفسه سواء حلف بالله أو بغيره كالذي يغضب من غير سبب أو يضحك من غير عجب فهذا من جهة المقسم عليه وأما من جهة المقسم به فاذا أقسم عبد قسماً دينياً بغير الله تعالى فكأنه اتخذها إلهاً فالمنع عن القسم بغيره تعالى على العموم سد لأبواب الشرك كالمنع عن السجدة لغيره تعالى أو كالمنع عن نحت الاصنام كما جاء في الاحكام العشرة ولذلك جاء في سفر التثنية ص ٦ عدد ١٣ « الرب الهك تتق واياه تعبد وباسمه تحلف » وهكذا نهى النبي ﷺ عن القسم بغير الله تعالى . وأما من جهة كليهما معاً فذلك أن يقسم بالله تعالى على أمور سخيفة . وهذا جمع بين قلة المروءة وقلة التقوى معاً والى هذا يشير قوله تعالى « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » فهذه هي الوجوه المحظورة في اليمين فاما دون ذلك فلا ينهي عنه لا سيما اذا دعت اليه دواعي المعاشرة كما ذكرنا في الفصل السادس والعاشر . وشريعتنا قد أنزلت للناس كافة

فتراعى حاجات التمدن ، وتميز بين دقائق الاحكام وتنظر الى ضعف فطرة الانسان كما قال تعالى « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » فلا ينبغى فيها النهى المطلق عن أمر هو المفزع عند جد الأمر وعزائم الامور التمدنية والدينية كما لا ينبغى فيها المؤاخذه على يمين لم يتعلق بها نية المتكلم بل نطق بها على ما جرت به العادة فى التهاور فقال تعالى « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم » وذلك بأن الاعمال بالنيات فيمين اللغو وان كانت خلاف المروءة لا يؤاخذ عليها لأن الرب غفور لعباده يرحمهم لضعفهم فلا يؤاخذ عامتهم على كل صغيرة . وهذا الذى ذكرنا يتعلق بالايمان العامة ، فأما أقسام القرآن فلكون جلها استدلالا لا مخاطرة فيها لشرف ولا دين فلا تمسها معرفة ثم انها على التوحيد والمعاد والرسالة وذلك أعظم الامور جلالة فهو أجدر ما يقسم عليه ، هل نفس أحد أشرف من أن يخاطر بها لهذه الشهادة أم يخاف أحد على دينه لخوف الكذب فيها ، اذا لا دين له . أم هو يستحى من اشهاد الله تعالى على هذه الامور تم قد شهد به الله والملائكة والعامون فالقسم عليه محمول على حقيقة معنى الشهادة التى تبذلها الانبياء صراحة فان النبي فى عموم تبليغه يقول ان الله تعالى أرسله بعلمه ويشهد على صدقه وهو يلوذ به ويعتمد عليه ويتخذة وكيل على ما يقول وهذه المعانى هى التى تفهم من القسم بالله كما مر فى الفصل العاشر فأى حرج ان ذكرها بأسلوب القسم . ولا يخفى أن القسم اذا كان من الله بخلقه وكتابه فلا مظنة فيه للشرك ولا معنى له الا الشهادة الخالية عن معنى

التعظيم . وجلة الكلام أن الاعتراض على أقسام القرآن أو على أقسام الأنبياء والصلحاء الذين أظهروا بأقسامهم توكلهم على الله وفرارهم إليه واستعانتهم به وكذلك النهى المطلق عن اليمين لم ينشأ الا من قلة التدبر والتمييز بين الامور . هذا وأما ما روى عن المسيح من نهيه عن الحلف مطلقاً فلعملة خاصة وبنينها فيما يتلو :

## ايضاح ما تجرد في الانجيل

من النهى المطلق عن الحلف

(١٩) قد علمنا وقد اعترف علماء المسيحيين بأن أصل الانجيل مفقود وانما في أيدينا تراجم اختلفت فيها أقوال المسيح وأقوال الرواة ، والروايات مختلفة ربما يصاد بعضها بعضاً مع اضطراب المتون وعدم السند فضلاً عن الاتصال والصحة فالالتفات إليها والتعرض لها ليس الا على تقدير التسليم وعلى سبيل التنزل فاعلم أن النهى عن الحلف جاء في الخطبة المعروفة بالخطبة الجبلية المذكورة في الانجيل المنسوب الى متى ببعض البسط ولا توجد في مرقس ولا في يوحنا ما خلا بعض الفقرات منها وجاءت في لوقا مختصرة ولاختصاره اخترته ماخذاً لاقتباسي ، فان نظرت في هذه الخطبة وتأملت آياتها ومواقعها تبين لك أنه عليه السلام لم يخاطب بهذا الجمهور ولم يجعلها شريعة عوض التوراة بل خص بها تلاميذه وأتباعه لمصلحة عظيمة كما ستعلمها . أما الدليل على التخصيص فمن وجوه :

الأول : تصرّحه عليه السلام بذلك فإن هذه الخطبة في متى مسبوقة متصلة بقوله « فاما جلس تقدم اليه تلاميذه ففتح فاه وعلمهم قائلاً » وكذلك رواية لوقا تذكر أنه أحيى الليل بالصلاة ثم اتته دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر وبعد ذلك تقول « ورفع عينيه الى تلاميذه وقال » ثم بدأ الخطبة بقوله « طوبأكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله ، طوبأكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون ... .. طوبأكم اذا أبغضكم الناس واذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشريير ... .. ولكن ويل لكم أيها الاغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم ، ويل لكم أيها الشباعي لأنكم ستجوعون ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » والثاني أن في هذه الخطبة أحكاماً لا تليق إلا بالمساكين والفقراء فإنه عليه السلام كما نهى فيها عن الخلف نهى عن الكثرة والاهتمام للغد وحماية النفس عن الظلم وبالغ في ذلك حتى قال « من ضرب على خدك فاعرض له الآخر أيضاً . ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً . وكل من سألك فأعطه ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه »

والثالث : ان في هذه الوصايا حسب ظاهرها نسخاً للتوراة والمسيح يتحاشى عنه فقال على سبيل دفع دخل مقدر قبل ذكر الوصايا « لا تظنوا أني جئت لانتقض التوراة ( التوراة ) أو الأنبياء ، ما جئت لانتقض بل لا أكمل » ( متى ) ثم دفع دخلاً مقدرًا آخر وهو أنه لا كمال في ترك الدنيا بأسرها فينبين لهم أن هذا كمال اضافي وهو التطهر عن الذنوب بالفرار عن الامتحان وكان ذلك سنته تعليماً

للذين عجزوا عن كمال أكمل فقال « ليس التلميذ أفضل من معلمه بل كل من صار كاملاً يكون مثل معلمه » (لوقا) والمبتدعون لم يرضوا بأن تكون سنته كالأضافياً فزادوا في رواية متى « فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات كامل » وفي رواية لوقا عوض هذه الجملة « فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم » هيهات هيهات هل يساوى العبد ربه ولكن الحق غالب يبقى على رغم معانديه ويطمس على عيونهم فانظر الى تصريحه بما ينفي شائبة الشرك ويبين أن كماله كمال اضافي مما يختص بالفقراء كما جاء في متى ص ١٩ عدد ١٦ « واذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أي صلاح اعمل لتكون لي الحياة الأبدية ١٧ فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً الا واحد وهو الله ولكن ان أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ١٨ فقال له : أية الوصايا؟ فقال يسوع : لا تقتل لا تزني لا تسرق لا تشهد بالزور ١٩ أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك ٢٠ قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حدثت فماذا يعوزني بعد؟ ٢١ قال له يسوع : ان أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء ونعال اتبعني ٢٢ فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة ٢٣ فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم انه بعسر أن يدخل غني الى ملكوت السموات ٢٣ وأقول لكم أيضاً ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله » قيين للسائل أن كماله في اتباعه والتجرد عن أسباب التمدن، والظاهر أن هذا ليس بكامل الكاملين ألا ترى أن

ابراهيم وداود وسليمان ويوسف عليهم السلام كانوا ذوى الثروة والكمال في الدين معاً هل يقال انهم لم يدخلوا ملكوت الله . فيما قلنا نزول شبهة نقض الناموس وترفع المخالفة بين التوراة والانجيل

والرابع : ان هذه الوصايا ان اريد بها العموم والاطلاق نكون مخالفة لسنة أئمة الهدى كابراهيم وداود وغيرهما فلنهم قاتلوا وانتصروا وجمعوا الوفر وأنفقوه في المواقع المحمودة ولم يكونوا عيالاً على الناس . ولدفع هذا الاعتراض زادوا في رواية متى ما يحرف الكلام عن معناه فقال « طوبى للمساكين بالروح » وكذلك « طوبى للجبياع وللعطاش الى البر لأنهم يشبعون » وهذا لا يبدل باقى الكلام الذى فيه الخطاب الى الفقراء والمساكين من جهة المال لا من جهة الروح وإنما حرفوه لأنهم لم يفهموا تأويله وسيأتيك عن قريب فتبين من غير شك أن هذه الأحكام مختصة بامة قد خلت وقضت وطرها وليست بشريعة كاملة يترى بها الانسان الى ذروة الكمال فى التمدن وتهذيب النفس وهى شريعة الاسلام لما فيه من اسلام النفس والمال لله تعالى أو لانم القيام بهما فى طاعة الرب كما قال تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » الآية وذلك مبسوط فى موضعه فبعد هذا التخصيص لا دليل على نهيهم عن اليمين مطلقاً وقد علمنا عقلاً ونقلًا جوازها والحاجة اليها ونحن معشر المسلمين نوقر الأنبياء أجمعين فلا نأول كلامهم الى ما يخالف العقل أو يحط الاخلاق وهذا يتبين كل التبين مما سنذكر فى الفصل الآتى من المصلحة العظيمة التى لأجلها خصهم بهذه الوصايا وإنما نذكرها بغاية الاجباز لأنها من مسائل بسطها يخرجنا عن موضوع هذا الكتاب وهى مبسطة فى موضعها

## الحكمة في تخصيص هذه الوصايا باتباعه

(٢٠) المسيحيون لا حاجة لهم الى تطبيق النقل بالعقل فانهم زعموا أن الدين وراء العقل ولكن فيهم رجالا متفلسفين سعوا في حماية الدين عن شين كل ما يشمئز عنه العقل وهم مع ذلك بل لذلك عند أئمتهم وعامتهم من الملاحدة ومنهم اسبنوز المتفلسف الماهر بالعبرانية . فقبل أن نبين لك ما هو التأويل عندى نورد رأى هذا المتفلسف فى أمر هذه الوصايا لتعلم أنه يوافقنا فى جعلها مخصوصة لامة وحالة ولتتعلم الفرق بين أهل العقول من طائفتى المسيحيين والمسلمين وتعلم أن تأويلنا مع ظهور حجته أكبر تعظيماً للشريعة وصاحبها . زعم اسبنوز أن المسيح عليه السلام إنما أمر أتباعه بأحكام فيها التذلل والخضوع للظالمين لانهم كانوا حينئذ مقهورين تحت سلطة الجبارين فأمرهم بأن لا تقاوموا الشر وتعرضوا لحدود اللطمة وأمثالها لا لشرافة أو حسن أو تدين فيها بل لكونها أصلح بحالهم : فهذا الرجل مع علمه وخوضه فى كتب الأنبياء وأحوالهم أقرّ بكون هذه الوصايا مخصوصة ولكنه لم يهتد الى علة هذا التخصيص فلن راعى جانب العقل فقد أضاع جانب الشريعة الالهية والمسيح وحواريه . وأما نحن فنقول ان من قرأ نسخ الانجيل هذه بالتأمل لا يخفى عليه أن المسيح عليه السلام إنما جاء مبشراً بقرب ملكوت الله الظاهر الذى كان عبارة عن سلطة دينية وقد كان أعطاه الله اليهود وضيعوه ثم دارت عليهم الدوائر وكانوا ينتظرونه مرة أخرى لوعده الله لهم فبشرهم المسيح بقربه

وعرفه لهم بأمثال كثيرة تطابق مطابقة واضحة نبوة خاتم النبيين ولما لم يؤمن به جمهور قومه وآيسه علماءهم لتساوة قلوبهم وتبعدهم لخارف الدنيا اصطفى من عامتهم البسطاء شردمة قليلة لم يغلبهم الترف والحرص لكيلا يعسر عليهم الدخول في ملكوت الله اذا ظهر وحينئذ يكملون بالشريعة الكاملة فامرهم بوصايا تبقيهم على حالة الفقر والمسكنة ليبقوا على طهارة القلب والتقوى والصبر ليتوب الله عليهم حسب سنته ووعدده كما هو مبسوط في موضعه. وانما اخترنا هذا التأويل لأنه يجعل قول المسيح من أعظم البشرى ونبوة كبرى ولا يخالف العقل ولا النقل وذلك بأنه انطبق على أحوال المسيحيين ووقع عليهم كل ما أخبر عنه ، فان طائفة من أمته آثرت الفقر ونبتت المال وطائفة آثرت الدنيا وعيروا الأولين بتسميتهم بالفقراء وطردهم ، كما بشره المسيح في أول هذه الخطبة ، ولم يكن ذنبهم الا أنهم أعطوا أموالهم في سبيل الله وألزموا على أنفسهم الفقر ولم يتركوا التوراة وحرموا الخنزير وأوجبوا الختان ولم يقولوا بالوهية المسيح ولم يقبلوا الا الاتجيل العبراني الذي ضيعه الآخرن وشنعوا على بالوس الذي بدل النصرانية وخالف الحواريين وادعى بأنه تعلم من المسيح في الرؤيا فلا حاجة له الى اتباع تلاميذه . فلما جاء الملكوت للبشر على يد خاتم النبيين دخله كثيرون من هؤلاء الفقراء وخالفه الأغنياء متكبرون وعلى ما قلنا شهادات في التوراة والانجيل والقرآن وتاريخ المسيحيين ولكن بسط ذلك في كتابنا ملكوت الله وغيره فاما الكلام هاهنا جر بنا اضطراراً فلم يمكننا الصفح عنه بالكلية ولا البسط له بالتمام



فانه موكول الى موضعه الجدير به وجملة القول أن نهى المسيح عن اليمين مطلقاً كان مخصوصاً بالذين كاتوا على سنته ولا ننكر ذلك فان امرأً تسئل عن التمدن بالكلية وجمع جرائمه للمكوت عظيم ينتظره ، يُشتم ويلطم ويظلم فلا ينتقم فهو لا يعامل ولا يجادل فلا يقاوم فأى أمر يدعو الى الحلف انما يكون قوله لا لا ونعم نعم . ثم نقول ان نهيه عن القسم كان أيضاً مخصوصاً من جهة المقسم عليه كما يظهر من موقع كلامه فأنى لأرى انه عليه السلام نهى عن القسم على الحقائق الدينية لأنه عليه السلام نفسه حسب رواية يوحنا أشهد الله تعالى على صدق رسالته وهل القسم الا الاشهاد . وكذلك ترى فى القرآن أقسام صالحى النصارى المرسلين انبليغ الحق حيث جاء فى سورة يس « قالوا ربنا يعلم انا اليك لمرسلون \* وما علينا الا البلاغ المبين » فقولهم « ربنا يعلم » قسم كما مر وهو ظاهر هذا وفى ما مر من الفصول السابقة كفاية ان شاء الله تعالى لمن أراد جواب الشبهات فان فيما ذكرنا توفيقاً بين النقل والعقل وتصديقاً بالتوراة والانجيل والقرآن . ومهما كان من اختلاف فانما هو من جهة الاتمام والتفصيل واقامة الوسط بين الافراط والتفريط ورعاية التمييز بين دقائق الأحكام عند تشابك النفع والضرر . وقد رأيت كيف راعى القرآن هذا التمييز فى حكم القسم ، وليس هذا موضع تفصيله فى سائر أحكام هذه الشريعة الكاملة ، ولكن نذكر الآن ما لم نذكر من لحاظ الفرق فى استعمال كلمات انقسم حسب مواقعها مما يحسن وما لا يحسن منه تماماً لما ذكرنا من معانى المقسم وتنبهها على طرف آخر من بلاغة القرآن وحثنا على بذل الجهد فى معرفة اللغة العربية فان بعض الجهل بها يضر بدين المرء

## الفرق في كلمات القسم

حسب مواقعها مما يحسن ومما لا يحسن

(٢١) قد تبين عند علماء اللسان أن في الألفاظ المترادفة فروقا ولكل منها معنى خاصا وحداً محدوداً. وقد وجد علماء العربية في القرآن من هذه الفروق ما لا ينتبه له الا الناقد المبتع كاستعماله الرياح في موضع النفع والريح في موقع الضرر، وكاستعماله الأمطار في موقع العذاب، فمن هذا الباب مراعاة الفرق بين كلمات القسم بحيث يشير بذلك الى بعض خصائصها. وقد ذكرنا في الفصل الثامن عشر أن القسم ربما يهين قدر المرء ويذهب بشرفه فانظر كيف ينزه القرآن على هذا الأمر باستعماله كلمة الحلف فيمن يصغر نفسه بيمينه ويلح حيث لا يلح شريف، فترى في سورة البراءة ذكر القسم من المنافقين في سبعة مواضع فلم يأت به الا بكلمة الحلف لدنائتهم وكذبهم في اعتذارهم وما جاءت هذه الكلمة في سائر القرآن الا حيث يشنع لما فيها من قلة المبالاة بشرف النفس والنزوع الى ما يليقها في الكذب والالحاح ولذلك لما أراد النابغة الغلو في تضرعه عند النعمان بن المنذر قال :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب  
فأفصح عن غاية الاستكانة، وهذا أبلغ بينة في اظهار الخشية  
والتذلل وهو أبلغ الشعراء عند الرهبة ولذلك قيل « أشعرهم امرؤ القيس  
إذا ركب، والاعشى إذا طرب، وعنترة إذا غضب، والنابغة إذا رهب »

فان صحت هذه الخصوصية عندك عرفت قدرها في الدين ، فانك اذا تجنبت استعمال كلمة الحلف لله تعالى كما ترى المفسرين منا والمترجمين للتوراة لا يبالون بقولهم « حلف الله بكذا » ولخصائص باقى كلمات القسم نحو ذلك الى الفصل السابع لىكى تستنبطها مما ذكرنا من معانيها فان موضوع الكلام هاهنا أن القسم لما كان أحياناً مذموماً ذمه القرآن حسب موضعه ودل عليه بكلمة خاصة، وهذا من تمام التشريع وكمال التبيين كما قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »

## خاتمة الكتاب

(٢٢) كل ما ذكرت فى الفصول السابقة ليس الا ما يتعلق بمسألة القسم من جهة كلية ، وأما تأويل آيات القسم على تفصيلها فذكر فى مواضعها من التفسير غير أنى فى طى الفصول وغضون الأمثلة دلت على ملاك أمرها وسمت نهجها . ثم لم يهمنى فى هذا الكتاب الا طرف خاص من بحث القسم وهو الذى اشتبهه على المعترض ومع ذلك ربما قادتى علائق الكلام الى أمور تقتضى بسطاً وتفصيلاً فجلتُ جولة الى نسحة من القول حتى اذا سطع الحق وانجابت الشبهة اقصرت عن استقصاء البحث لكى لا اخرج عن الموضوع فصار الكتاب جامعاً بين خطتين الايجاز والاطناب وواقعاً بين نقطتين الاجمال والتفصيل . ويوشك الناظر المستعجل يتهمنى مرة بالحصر وأخرى بالهذر ، فليعلم أنه قد اضطرني الى هذا الوضع شكل المسألة وصورتها الخاصة . ومع ذلك ما ابرئ نفسى عن الزلة والعثرة ، وفى ذلك تمام المذرة . وأسأل الله العفو والمغفرة ، فانه أرحم الراحمين

﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾

# فهرس

صفحة

- (١) ديباجة الكتاب . . . . . ٣
- (٢) ذكر الشبهات الثلاث على أقسام القرآن . . . . . ٤
- (٣) طريق الامام الرازي في الجواب عن هذه الشبهات . . . . . ٥
- (٤) طريق العلامة ابن القيم رحمه الله في تأويل أقسام القرآن لدفع الشبهات ١٠
- (٥) طريق هذا الكتاب في الجواب على سبيل الاجمال . . . . . ١٣
- (٦) تاريخ القسم وحاجة الناس اليه وطرقه المختلفة للدلالة على حقيقة معناه في أول الامر ١٤
- (٧) بيان أن القسم لا يلزمه المقسم به بايضاح معاني كلمات كثير استعمالها للقسم ١٩
- (٨) بيان أصل معنى القسم اذا كان فيه مقسم به . . . . . ٢٢
- (٩) القسم على وجه الاكرام للمقسم به والمتكلم والمخاطب . . . . . ٢٤
- (١٠) القسم على وجه التقديس للمقسم به . . . . . ٢٦
- (١١) القسم على وجه الاستدلال بالمقسم به . . . . . ٣٢
- (١٢) القسم على وجه الاستدلال في كلام ديماستنيس أعظم بلغاء يونان . . ٣٦
- (١٣) القسم على وجه الاستدلال في كلام بوليوس الشاعر اليوناني . . . . ٣٨
- (١٤) شرح دلالات القسم الاستدلالي . . . . . ٣٨
- (١٥) الأدلة المأخوذة من نفس القرآن على ما فيه من الأقسام الاستدلالية ٤١
- (١٦) بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح في تأويل أقسام القرآن . . . . . ٤٥
- (١٧) ذكر بعض ما في القسم من أبواب البلاغة ولطائفها . . . . . ٤٨
- (١٨) الفرق بين ما يحسن وما لا يحسن من القسم . . . . . ٥٦
- (١٩) ايضاح ما نجد في الانجيل من السهي المطلق عن الحلف . . . . . ٥٨
- (٢٠) الحكمة في تخصيص هذه الوصايا باتباعه . . . . . ٦٢
- (٢١) الفرق في كلمات القسم حسب مواقعها مما يحسن ومما لا يحسن . . . . ٦٥
- (٢٢) خاتمة الكتاب . . . . . ٦٦

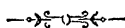
# أَبُو الْعَلَاءِ وَقَالِيبُهُ

كتاب حافل بتاريخ حكيم الشعراء وأخباره  
جامع للباحث الدقيقة ، في حياته واثاره . منه على اوام الشرق والغرب في فهم رموزه واسراره

تأليف

عبد العزيز لمينى الرَّجَبِي الأَثْرِي

الاستاذ بجامعة على كره الاسلاميه في الهند



عُنِيَتْ بِنَشْرِه

دَارُ الْمِصْرَيْنِ

في ٣٢٠ صفحة كبيرة \* يليه رسالة الملائكة للمعري مشروحة ومحقة في ٣٠ صفحة  
وبعدهما فائت شعر أبي العلاء في ١٥ صفحة \* ثمن الجميع ٣٠ قرشاً

يطلب من

المطبعة السلفية - ومكتبها

ترجمة صاحب هذه الرسالة

المعلم عبد الحكيم الفراهي

رحمه الله

بقلم صديقه العلامة الجليل

السيد سليمان الندوي

رئيس جمعية دار المصنفين

ومشور مجلة ( معارف ) -

(ب)

## ترجمة صاحب هذه الرسالة

الدنيا دار العجائب ، ومن أعجب عجائبها وقوع ما كنت تحذر منه ،  
وحدوث ما لم يخطر ببالك

بعثنا هذه الرسالة للطبع ، وصاحبها حيُّ يرزق . فلم يمض شهر حتى  
فوجئنا بجموته ، وفجعنا بانحرام حياته ، وكان رحمه الله آية من آيات الله في  
حدة الذهن ، وكثرة الفضل ، وسعة العلم ، ودماثة الخلق ، وسداد الرأي  
والزهد في الدنيا ، والرغبة في طلب مرضاة الله

هو حميد الدين أبو أحمد عبد الحميد الانصارى الفراهى

وُلد رحمه الله سنة ١٢٨٠هـ في قرية فريها من قرى مديرية أعظم كره  
في الولايات المتحدة بالهند . وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الاسلام  
الشيخ شبلى النعمانى ، تفعمده الله برحمته

واشتغل بعد ما ترعرع في طلب العلم ، حفظ القرآن ، وقرأ  
كذاب أبناء العائلات الشريفة في الهند اللغة الفارسية ، وبرع فيها ،  
فنسج قصيدة فارسية صعبة الريف بارى فيها شاعر الفارسية الطائر  
الصيت خاقانى الشروانى ، فأتى فيها بما أعجب الشعراء

واشتغل بعد ذلك بطلب العربية ، فاستظل بمطف أخيه الشيخ  
شبلى النعمانى ، وهو كان أكبر منه بست سنين ، فاخذ منه العلوم العربية  
كلها من صرفها ونحوها ، ولغتها وأدبها ، ومنطقها وفلسفتها . ثم سافر  
الى لكنؤ مدينة علم الولايات المتحدة ، وجلس في حلقة الفقيه المحدث

(ج)

الامام الشيخ أبي الحسنات عبد الحى السكنوى صاحب التعاليق المشهورة ثم ارتحل الى لاهور وأخذ الأدب العربى من إمام اللغة العربية وشاعرها المفلق فى ذلك العصر الشيخ الأديب فيض الحسن السهارنفورى شارح الحماسة واستاذ اللغة العربية فى كلية العلوم الشرقية بلاهور ، فبرع فى الآداب العربية وفاق أقرانه فى الشعر والانشاء . قرأ دواوين الجاهلية كلها وحلّ عقد معضلاتها . وقنص شواردها . فكان يقرض القصائد على منوال الجاهليين ويكتب الرسائل على سبك بلغاء العرب وفصحاهم ثم عرّج على اللغة الانكليزية ، وهو ابن عشرين سنة ؛ ودخل فى كلية على گره الاسلامية ونال بعد سنين شهادة ب ع من جامعة الله آباد وامتاز فى الفلسفة الحديثة أخذها من الاستاذ الدكتور توما أرندل الانكليزى الاستاذ بكلية على گره الاسلامية يومئذ ، فصار مجمع البحرين وبينهما برزخ لا يبغيان . كان عالماً بالعلوم العربية والدينية وفاضلاً فى العلوم المصرية والانكليزية ، فاجتمعت فيه خصال الجنسين المتقين من العلماء الراسخين ، والمتنوّرين من الفضلاء الكاملين

وبعد ما قضى وطره من طلب العلم ، واستقى من حياضه ، ورتع من رياضه . نُصب معلماً للعلوم العربية بمدرسة الاسلام بكراشى عاصمة السند . فدرّس فيها سنين وكتب وألف ، وقرض وأنشد ثم انقطع الى تدبر القرآن ودرسه . والنظر فيه من كل جهة . وجمع علومه من كل مكان ، فنقضى فيه أكثر عمده ، ومات وهو مكبٌ على أخذ ما فات من العلماء ، ولّف ما نشره ولمّ ما اشتتبه ، وتحقيق ما



بمحققوه . فكان لسانه ينبع علماً بالقرآن وصدوره يتدفق بحثاً عن مشكلاته وقلمه يجري كشفاً عن معضلاته . وهو كان يعتقد أن القرآن مرتب بياناً ومنسقة النظام آياته . وكل ما تقدم وتأخر من سوره وآيه بنى على الحكمة والبلاغة ورعاية مقتضى الكلام . فلو قدم ما أخرج وأخر ما قدم لبطل النظام ، وفسدت بلاغة الكلام . وكان يرى أن القرآن يفسر بعضه بعضاً فأعرض عن القصص وما أتى به المفسرون من الزخارف والعجائب . هذا كان دأبه في تفسيره الذى سماه نظام الفرقان وتفسير القرآن بالقرآن وكان حسن النظر في كتب اليهود والنصارى ، فاستمتع بها في مباحثه

ولما سافر الحاكم العام في الهند اللورد كرزن في رحلته السياسية سنة ١٩٠٠ م الى الشواطىء الغربية والخليج الفارسى ليجتمع بشيوخ العرب وأمراءهم عين الشيخ حميد الدين ترجماناً فرافقه في السفر ، وانتخب بعد ما قفل من رحلته معلماً للغة العربية بكلية على كرهه الاسلامية ؛ وكان يومئذ استاذ اللغة العربية بها المستشرق الألماني الشهير يوسف هارويز فالمستشرق استكمل منه العربية ، وهو قرأ عليه العبرانية . وبعد سنين نصب استاذاً للغة العربية بجامعة الله آباد ، وبقى هناك أعواماً حتى انتقل منها الى حيدر آباد الدكن رئيساً لمدرسة دار العلوم العربية الأميرية النظامية التي كانت تخرج قضاة البلاد وولاتها

وهو الذى ارتأى تأسيس جامعة أردوية تدرس العلوم الدينية بالعربية والعلوم المصرية بالاردوية ؛ وبذل جهده في تحقيق هذا الأمل وإنجاز هذا العمل حتى نال القبول من مالكي أزمة الأمور والجمهور .

وصادق عليه دولة الأمير الاعظم النواب نظام الملك آصف جاه الثامن  
عثمان على خان خلد الله ملكه ودولته . وسميت بالجامعة العثمانية ، وهي  
يومئذ من أحدث جامعات العالم سنًا ولكن أعجبها نظامًا

ثم استقال من خدمته ولزم بيته ، وانقطع الى العلم . وكان قد أسس  
في قرب من قريته مدرسةً عربية دينية سميت « مدرسة الإصلاح »  
فكان ينظر في شئونها ويحريها على أمثل طريق اخترعه وأحسن أسلوب  
أبدعه . ومن جل مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية ، وإيجاز قائمة  
دروسها المتعبة العقيمة ، والغناء العلوم البالية القديمة ، والعكوف على طلب  
علوم القرآن ، والبحث عن معانيه ونظمه ، وأحكامه وحكمه

وكان رئيسًا للجنة المديرين « لدار المصنفين » التي أسست تذكاريًا  
لأخيه الشيخ شبلي النعماني فكان هو أحد مؤسسيها . وكان يبذل أوقات  
فراغه في التأليف والتدوين والنظر في القرآن ومعانيه والقاء دروسه على  
تلامذته الملتفتين حوله . فسمح خاطره المتدفق بما يحل به القدمات من  
علومه ، وفرق على العفاة ما لم يجمعه الاوائل في صحفهم

كان رحمه الله منقطعاً الى هذا البر من العمل ، حتى أتاه الأجل في  
التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ ( الحادى عشر من نوفمبر سنة  
١٩٣٠ م ) مات غريباً في مدينة متهورا كعبة الوثنيين في الهند . كان  
رحل اليها عليلًا يستشير طبيبياً نطاسياً من أبناء بلده موظفاً فيها فلم ينجمه  
لدواء ، ولم يرزق الشفاء ، وأنهكته العلة التي سدكت به ، وخابت العملية  
لتي قام بها الطبيب وهو محتسب صبراً ، ومطمئن شكرياً . يجود بنفسه وهو يتلو

(و)

القرآن ، ويشكر الرحمن . حتى أسكت الحمام . ناظم الكلام ، الى يوم  
القيام . وكل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . صدق  
قول القائل : عاش حميداً ومات شهيداً  
خلف من آثار خاطره ذخيرة لا تفتى ؛ وعلوماً لا تبلى . وأكثرها

بالعربية

فما طبع من كتبه :

(١) أسباق النحو جزآن بالأردوية (٢) وديوانه الفارسي (٣)  
وخرننامه كتاب نظم فيه حكمة سيدنا سليمان بالفارسية الفصحى لاتشوبها  
كلمة عربية ، (٤) مقالة في الشفاعة والكفارة بالانكليزية ردها على بعض  
علماء النصراني . والبقية الآتية كلها بالعربية ، (٥) الرأى الصحيح في من  
هو الذبيح ، (٦) وتفسير سور من القرآن ، وهو جزء من أجزاء  
تفسيره نظام الفرقان (٧) وامعان في أقسام القرآن  
ومما لم يطبع من كتبه :

(٨) بقية تفسير سور من القرآن ( ولم يكمله ، وذلك ماخسرت به  
الامة المحمدية ) (٩) جهرة البلاغة ( اصل فيها أصولها يهدى الناس الى فهم  
عجاز القرآن ، ورد فيها على أصول ريطوريقا لارسطو الذى أضل  
التأخرين من مصنفي كتب البلاغة ، حتى الشيخ عبد القاهر الجرجاني  
رحمه الله ) (١٠) فلسفة البلاغة (١١) سليقة العروض (١٢) دلائل الى النحو  
الجديد والمعاني والعروض والبلاغة (١٣) ملكوت الله ( وهو تحقيق  
نواميس الله وسننه في خلقه وتديره ومجازاته ) ، (١٤) الرائع في أصول

(ز)

الشرائع ، (١٥) أساليب القرآن ، (١٦) أحكام الاصول بأحكام الرسول  
(وهو تتبع طرق الاجتهاد النبوي) ، (١٧) القائده الى عيون العقائده  
(وهو تحقيق ماجاء به القرآن من الدين لايشوبه بدعة المبتدعين وفتنة  
المتكلمين) (١٨) كتاب العقل وما فوق العقل (تحقيق العلوم التي تدركها  
العقول والتي فوق ادراكها) ، (١٩) الاكليل في شرح الانجيل ،  
( تصحيح ما نطق به الرسول المسيح ، وتفسير ما أوله المبطلون من أهل  
الصليب ) (٢٠) أسباب النزول ( نزول القرآن ) (٢١) تاريخ القرآن ( تاريخ  
جمعه وتأليفه . وهو كان يعتقد بالادلة القرآنية الصحيحة أن القرآن كان  
مؤلفا على عهد النبي ﷺ ) (٢٢) أو صاف القرآن ( شرح ما وصف به  
القرآن نفسه ، من الحكمة والذكر والنور والابانة وغيرها من النعوت ،  
(٢٣) فقه القرآن (٢٤) حجج القرآن (٢٥) كتاب الرسوخ في معرفة  
الناسخ والمنسوخ (٢٦) رسالة في اصلاح الناس (٢٧) كتاب أصول  
التاويل (٢٨) مفردات القرآن (تحقيق معاني كلمات القرآن بالقرآن)  
(٢٩) دلائل النظام ، هو ايضاح ما أراد به من نظام القرآن واستبدال الآبار  
على صحة ما أراد ، وأقام عليه الحجج . (٣٠) الازمان والاديان ، ان لدين  
لا يتقاب بتقلب الازمان ، والدين كله واحد ) (٣١) كتاب الحكمه  
( شرح معنى الحكمة التي في القرآن ، والتي أوتى النبيون . وما كانوا  
يعلمون الناس منها ) (٣٢) القسطاس (رسالة في علم جديد وهو منطق  
العمل وميزان الارادات وأساس الحكمة العملية) (٣٣) ديوانه العربي  
ونعته بديوان ابى أحمد الانصارى

(ح)

من يقرأ أسماء هذه الكتب ، يقضى منها العجب ويؤمن بما أُوتى  
صاحبها من سعة العلم ، وصحة النظر ، وكثرة الفضل ، وسلامة الذوق ،  
وتوقد الذهن ، والتأمل في القرآن ، وفهم أصوله ومعانيه . وتناول  
أقاصيه وأدانيه

رحمه الله وأكرمه ، ونفعنا بعلمه وكتبه . ويسر لنا طبعها ونشرها  
وعمم المستفيدين خيرها وبرها

العبد السكيب المحزون  
سليمان الندوي

دار المصنفين  
بمدينة اعظم كره بالهند  
٢٧ شعبان سنة ١٣٤٩